سلسلة المعارف التعليمية

علوم القرآن والتفسير

دروس تمهيدية

في معرفة القرآن الكريم

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية

إعداد مركز نون للتأليف والترجمة

سلسلة المعارف التعليمية

دروس تمهيديّة
في معرفة القرآن الكريم

اسـم الكـتاب:	دروس تمهيديّة في معرفة القرآن الكريم
إعـــــــداد:	جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة – مركز نون للتأليف والترجمة
نـشـــــــر:	جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة
الطبعة الثالثة:	2016م – 1437هـ

©جميع حقوق الطبع محفوظة

سلسلة المعارف التعليمية

دروس تمهيديّة
في معرفة القرآن الكريم

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
إعداد مركز نون للتأليف والترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

المقدّمة 11

المحور الأول: فضل قراءة القرآن وآداب تلاوته ومقاصده 13

الدرس الأول: فضل تعلّم القرآن وتلاوته 15

مقدّمة 17

الحَثّ على تعليم القرآن وتَعَلُّمِه 17

فضل قراءَة القرآن وتجويده وترتيله 20

الدرس الثاني: أحكام القرآن والآداب الظاهريّة لتلاوته 27

مقدّمة 29

القرآن نور 30

الآداب الظاهرية لتلاوة القرآن 30

أحكام القرآن الشرعية 33

الدرس الثالث: الآداب الباطنيّة لتلاوة القرآن 39

مقدّمة 41

الدرس الرابع: الموانع والحجب بين المستفيد والقرآن 49

مقدّمة 51

حجاب رؤية النَّفس مستغنيةً 51

حجاب الآراء الفاسدة والعقائد الباطلة 52

حجاب شبهة التفسير بالرأي 53

حجابُ الذُّنوب والمعاصي 54

حجاب حبّ الدُّنيا 55

الدرس الخامس: مقاصد القرآن 59
مقدمة 61
الاحتجاجات الإلهيّة 62

المحور الثاني: علوم ومعارف قرآنيّة 73
الدرس السادس: أسماء القرآن وأوصافه 75
معنى القرآن 77
أسماء القرآن 78
أوصاف القرآن 81
لغة القرآن 83
الدرس السابع: الوحي 87
الوحي في اللّغة 89
الوحي في القرآن 89
أنحاء الوحي الرسالي 90
أنحاء الوحي بالنسبة إلى نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم 91
الدرس الثامن: تاريخ القرآن 97
مقدمة 99
معنى النزول 99
الأقوال في نزول القرآن 100
فوائد النزول التدريجي 101
أوّل ما نزل من القرآن 102
آخر ما نزل من القرآن 104
المكّي والمدني 106
ترتيب النّزول 106
الدرس التاسع: ترتيب القرآن 111
مقدّمة 113

نظم كلماته 113
تأليف آياته 114
ترتيب سوره 115
جمع الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام 116
جمع زيد بن ثابت 117
منهج زيد 117
الدرس العاشر: الرسم القرآنيّ 123
أقسام الرسم القرآنيّ 125
متباينات الرسم العثمانيّ والرسم القياسيّ 126
الدرس الحادي عشر: الإعجاز القرآني 133
معنى الإعجاز 135
فلسفة تنوّع المعجزات 135
المعجزات حسّية وعقلية 137
التحدّي في خطوات 139
التحدّي في شموله 140
سرّ الإعجاز 142
الدرس الثاني عشر: صيانة القرآن من التحريف 147
ما هو التحريف؟ 149
دلائلنا على دحض شبهة التحريف 151

المحور الثالث: دروس في التفسير 161

الدرس الثالث عشر: تفسير سورة الفاتحة (1) 163
خصائص سورة الفاتحة 165
أهمّيّتها 166
محتوى السّورة 166
في رحاب سورة الفاتحة 167

الدرس الرابع عشر: تفسير سورة الفاتحة (2) 171
1. مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ 173
خطّان منحرفان! 176
الدرس الخامس عشر: تفسير سورة الضحى 179
في رحاب السّورة 181
سبب النّزول 181
التّفسير 182
فلسفة انقطاع الوحي 183
الشكر على كلّ هذه النِّعم الإلهيّة 183
الدرس السادس عشر: تفسير سورة البيّنة 189
في رحاب السورة 191
ذلك دين القيّمة 192
خير البريّة وشرّها 194
عليّ عليه السلام وشيعته خير البريّة 196
منحنى الصعود والسقوط 197
الدرس السابع عشر: تفسير سورة الجمعة 199
في رحاب السورة 201
الهدف من بعثة الرسول 202
الحمار الّذي يحمل الأسفار 203
توصيف حال اليهود 204
أهمّيّة صلاة الجمعة 206
فلسفة صلاة الجمعة العباديّة والسياسيّة 207
دور صلاة الجمعة 208
الدرس الثامن عشر: سورة الشمس 211
شرح المفردات 213
محتوى السورة وفضيلتها 213
في كنف السورة 214

الدرس التاسع عشر: سورة الليل 219
شرح المفردات 221
سبب النزول 221
محتوى السورة وفضيلتها 222
في كنف السورة 222
الدرس العشرون: مفاهيم قرآنيّة 227
المفهوم الأول: الخشوع في الصلاة 229
المفهوم الثاني: قصة طالوت والقائد الصالح 233

المقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله الطاهرين وصحبه المنتجبين وبعد.

القرآن الكريم أساس الدِّين وباب الإسلام، وهو كتاب الله الذي أودع فيه شريعته وحقائق دينه، أنزله للناس هادياً وسراجاً منيراً ليُخرجهم من الظلمات إلى النور. وأمرهم بالتمسُّك بـه لأنّه كلمة الله التامة وإرادتـه الكاملة للبشرية في كلّ زمان ومكان؛ ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[1]، فمـن أراد الوصـول إلى الله ما عليـه إلا أن يسلك سبيله ويهتدي بهداه، ومن اهتدى إنّما يهتدي به ومن ضلّ فهو الذي يزيغ عنه.

لـذا كان عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الأطهـار عليهم السلام إلينا بأن نحفظه ونراعي حدوده فلا نُضيّعها أبداً، لأنّه نعمة الله الكبرى التي من تمسّك بها فاز ومن تخلّف عنها خسر. فقد سُئـل إمامنا الرضا عليه السلام: مـا تقول في القرآن؟ فقـال عليه السلام: «**كلام الله لا تتجاوزوه ولا تطلبـوا الهدى فـي غيره فتضـلّوا**»[2] وعن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنْ أَردتم عيش السـعداء وموت الشـهداء والنجاة يوم الحشـر والظلّ يوم الحرور والهدى يوم الضـلالة فادرسـوا القرآن فإنّه كلام الرحمن وحرز من الشيطان ورجحان في الميزان**»[3].

---

(1) سورة الأنعام، الآية 155.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 89، ص 117، تحقيق السيد إبراهيم الميانجي – محمد باقر البهبودي، نشر مؤسسة الوفاء – لبنان، ط 2، 1983، باب أن القرآن مخلوق، ح 2.

(3) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل ج4، ص 232، تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث – قم، باب النوادر، ح4.

وهو الكمال الحقيقي والغنى الذي لا غنى بعده. عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**القرآن غنى لا غنى دونه ولا فقر بعده**»[1]. فمن أُعطي القرآن فقد أُعطي الخير المطلق والكمال الذي لا حدّ له وأفضل ما في الوجود، لأنّه لا غنى ولا كمال فوقه على الإطلاق، ففيه علم الأولين والآخرين، ومن تحقّق به كان من حملة القرآن وأولياء الحقّ المقرّبين. فعن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**لا ينبغي لحامل القرآن أنْ يظنّ أنّ أحداً أُعطي أفضل ممّا أُعطي لأنّه لو ملك الدنيا بأسرها لكان القرآن أفضل ممّا ملكه**»[2].

وهو مأدبة الله تعالى إلى خلقه، التي زيّنها بأنواع لا تُعدّ ولا تُحصى من الأطعمة العملية والمعنوية التي هي غذاء الروح وكمالها الحقيقي، ووضع على هذه المأدبة كلّ ما يحتاجه الإنسان وما ينفعه. ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[3]. وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنّ هذا القرآن مأدبة الله فتعلّموا مأدبته ما استطعتم**»[4].

وفيه خزائن العلم الإلهي، التي من استفاض منها كان من عرفاء أهل الجنّة. فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**حملة القرآن عرفاء أهل الجنّة**»[5]. وعن الإمام زين العابدين عليه السلام: «**آيات القرآن خزائن العلم فكلّما فتحت خزانة فينبغي لك أن تنظر ما فيها**»[6].

هذا الكتاب دروس تمهيديّة في معرفة القرآن الكريم يتضمّن سلسلة من الدروس القرآنية التي تهدف إلى التعرّف على مجموعة من المعارف الأساس التي يجب أن يتعرّف عليها الإنسان المسلم، وتُشكّل جزءاً من ثقافته القرآنية، راجين من المولى عزّ وجلّ أن يوفقّنا لخدمة كتابه والعمل به.

والحمدلله ربّ العالمين

مركز نون للتأليف والترجمة

(1) الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج6، ص168، تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام، لإحياء التراث – قم، مطبعة مهر – قم، ط 2، 1414هـ، أبواب قراءة القرآن ولو في غير الصلاة، ح 11.

(2) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل ج، 4 ص، 237.

(3) سورة الزمر، الآية 27.

(4) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل ج، 4 ص، 232.

(5) م. ن، ص 243.

(6) م. ن، ص 238.

المحور الأول

فضل قراءة القرآن
وآداب تلاوته ومقاصده

الدرس الأول

فضل تعلّم القرآن وتلاوته

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يفهم فضل تعلّم القرآن وتعليمه.

2 . يعرف ثواب قراءة القرآن وآثارها.

3 . يشرح كيفية القراءة المعتبرة الواردة في الروايات.

مقدّمة

لقـد حدّد الله تعالى ورسول الله ﷺ والأئمة عليهم السلام سبل الاستفادة من القرآن الكريم، بالتدبّر والتعلّم والحفـظ، والعمل بآياته، وتربية الأمّة على ضوئها، وذلك باعتبار أنّ القرآن كتاب هداية، ورسالة للعالمين حتى قيام الساعة.

الحَثّ على تعليم القرآن وتَعَلُّمِه

1. تعلّموا من مأدبة الله تعالى:

لقد ورد الحثّ المباشر من النبيّ ﷺ على تعلّم القرآن وتعلّمه، وأنّه مأدبة الله. روي عن رسول الله ﷺ: «**القرآن مأدبة الله فتعلّموا من مأدبة الله ما استطعتم، إنَّه النّور المبين، والشفاءُ النافع، تعلَّموه فإنّ الله يُشرّفكم بتَعلُّمه**»[1].

واعتبـر أنّ تعلّـم القرآن حقّ وواجب - ليس بالوجوب الشرعي المصطلح -، روي عن رسـول الله ﷺ: «**مـا مـن مؤمن ذكـراً أو أُنثـى، حـرّاً أو مملـوكاً، إلا ولله عليه حقّ واجب أن يتعلّم من القرآن**»[2].

2. ثواب تعليم القرآن وتعلّمه:

ومـن الخصائـص التي يمتاز بها القـرآن الكريم، أنّ الأجر والثـواب الأخروي والدنيوي يشمـل كلّاً مـن العالم والمتعلّم، روي عن رسول الله ﷺ: «**مَن عَلَّم آية من كتاب الله تعالى كان له أجرها ما تُليت**»[3].

---

(1) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج1، 287.

(2) م.ن، ص287.

(3) م.ن، ص288.

وعنه ﷺ: «**من تَعَلَّمَ القرآن وتواضع في العلم وعلَّم عباد الله وهو يريد ما عند الله لم يكن في الجنّة أعظم ثواباً منه، ولا أعظم منزلة منه، ولم يكن في الجنّة منزلة وَلا درجة رفيعة ولا نفيسة إلا وكان له فيها أوفر النصيب، وأشرف المنازل**»[1].

وعن رسول الله ﷺ: «**معلِّم القرآن يستغفر له كلّ شيء حتى الحوت في البحر**»[2].

وعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «**تعلَّموا القرآن فإنّه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنّه شفاءُ الصدور، وأحسنوا تلاوته فإنّه أنفع (أحسن) القصص فإنّ العالم العامل بغير علمه كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق من جهله، بل الحجّة عليه أعظم والحسرة له ألزم، وهو عند الله ألوم**»[3].

3. إكرَام حَمَلَة القُرآن:

حملة القرآن هم الجماعة الذين آمنوا بالقرآن ككتاب هداية ورسالة للبشرية جمعاء، وتدبّروا كتاب الله وحفظوه بالقلب والعمل، ويسعون جادّين لبناء قواعد الحياة والمجتمع وفق ما جاء في آياته، روي عن رسول الله ﷺ: «**إنّ أهل القرآن في أعلى درجه من الآدميين ما خلا النبيّين والمرسلين، فلا تستضعفوا أهل القرآن حقوقهم، فإنّ لهم من الله العزيز الجبّار لمكاناً عليّاً**»[4].

عن رسول الله ﷺ: «**يا أبا ذر من إجلال الله: إكرام ذي الشيبة المسلم. وإكرام حملة القرآن العاملين به. وإكرام السلطان المقسط**»[5].

4. العَمَل بالقُرآن وتطبيقه:

لا قيمة للعلاقة بكتاب الله على مستوى القراءة والتدبّر والحفظ وغيرها، دون العمل والالتزام بتعاليم الله تعالى وتشريعاته التي نزلت وحياً على نبي الإسلام محمد ﷺ روي

---

(1) الشيخ الصدوق، عقاب الأعمال، ص51، تحقيق السيد محمد مهدي السيد حسن الخرسان، منشورات الشريف الرضي – قم، ط 2، 1368ش، عقاب مجمع عقوبات الأعمال.

(2) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج1، ص288.

(3) الشريف الرضي، خطب الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، الخطبة رقم 110.

(4) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص441، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري، نشر دار الكتب الإسلامية – طهران، مطبعة حيدري، ط 4، 1365ش، باب فضل حامل القرآن، ح 1.

(5) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج1، ص290.

عن رسول الله ﷺ: «**مَن تعلَّم القرآن ولم يعملْ به وآثر عليه حبَّ الدنيا وزينتها استوجب سخطَ الله، وكان في الدرجة مع اليهود والنصارى الذين ينبذون كتاب الله وراءَ ظهورهم. ومن تعلَّم القرآن ولم يعمل به حشره الله يوم القيامة أعمى، فيقول: يا ربّ لم حشرتني أعمى وقد كُنتُ بصيراً؟ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى، فيؤمر به إلى النار**»[1].

روي عن رسول الله ﷺ أيضاً: «**من قال به (أي بالقرآن) صَدَق، ومن عَمل به أُجر، ومن اعتصم به هُديَ إلى صراط مستقيم، هو الكتاب العزيز**»[2].

وعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «**أين القوم الذين دُعوا إلى الإسلام فقبلوه، وقرؤوا القرآن فأحكموه وهيجوا إلى الجهاد فولهوا الله وَلَه اللقاح إلى أولاده؟**»[3].

وعن الإمام محمّد بن علي الباقر عليه السلام: «**قُرَّاءُ القرآن ثلاثة: رجلٌ قرأ القرآن فاتَّخذَه بضاعة واستدرّ به الملوك، واستطال به على الناس. ورجلٌ قرأ القرآن فحفظَ حروفَه وضيّعَ حدوده، وأقامهُ إقامة القدح فلا كثَّر الله هؤلاء من حملة القرآن. ورجلٌ قرأ القرآن فوضع دواءَ القرآن على داء قلبه، وأسهر به ليله، وأظمأ به نهاره، وقام به في مساجده، وتجافى به عن فراشه، فبأولئك يدفع الله البلاءَ وبأولئك يُنزل الله الغيث من السماء. فوالله لَهؤلاء في قرّاء القرآن أعزّ من الكبريت الأحمر**»[4].

وعن الإمام الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام: «**إنّ الرجل إذا كان يعلم السورةَ ثم نسيها أو تركها ودخل الجنّة أشرفت عليه من فوق في أحسن صورة فتقول: تعرفني؟ فيَقول: لا. فتقول: أنا سورة كذا وكذا لم تعمل بي، وتركتني، والله لو عملتَ بي لبلغتُ بك هذه الدرجة، وأشارت بيدها إلى ما فوقها**»[5].

---

(1) الشيخ الصدوق، عقاب الأعمال ص 52.

(2) محمد بن سعود، تفسير العياشي، ص3، ج، تحقيق السيد هاشم الرسولي المحلاتي، نشر المكتبة العلمية الإسلامية – طهران.

(3) الشريف الرضي، نهج البلاغة، الخطبة رقم 121.

(4) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص459.

(5) م.ن، ص445.

فضل قراءَة القرآن وتجويده وترتيله

لقد كثُرت الأخبار التي تحثّ على قراءة القرآن وترتيله، ووعدت أصحابها بالثواب الجزيل، وورد فيها الإشارة إلى العديد من الآثار الدنيوية والأخروية التي يستحقّها قارئ القرآن.

وهذا ما يتطلّب التوقّف مع هذه الروايات، بالدراسة والتحليل والتدقيق في معانيها ودلائلها تمهيداً للاستفادة منها في حياتنا العملية.

1. آثارُ القراءة وقيمتُها:

اعتبر النبي ﷺ قراءة القرآن أفضل العبادة فروي عن رسول الله ﷺ: «**مَن قرأ عشر آيات في ليلة لم يُكتب من الغافلين. ومَن قرأ خمسين آية كُتب من الذاكرين. ومَن قرأ مائة آية كُتب من القانتين. ومَن قرأ مائتي آية كُتب من الخاشعين. ومَن قرأ ثلاثمَّائة آية كُتب من الفائزين. ومن قرأ خمسمائة آية كتب من المجتهدين. ومن قرأ ألف آية كُتب له قنطار - منْ تبْر- والقنطار خمسون ألف مثقال ذهب، والمثقال أربعة وعشرين قيراطاً، أصغرها مثل جبل أُحُد، أكبرها ما بين السماء والأرض**»[1].

واعتبر ﷺ قراءة القرآن من أفضل العبادة، فورد عن رسول الله ﷺ: «**أفضل العبادة قراءَةُ القرآن**»[2].

وعنه ﷺ: «**من قرأ القرآنَ فظنَّ أنَّ أحداً أُعطي أفضل مما أُعطي فقد حقَّر ما عظَّمَ الله وعظَّمَ ما حقَّرَ الله**»[3].

ولقارئ القرآن ثواب الشاكرين، كما ورد عن رسول الله ﷺ: «**قال الله تبارك وتعالى: من شُغل بقراءَة القرآن عن دعائي ومسألتي أعطيتُه أفضلَ ثواب الشَّاكرين**»[4].

وإذا نظرنا إلى بعض الآثار الأخروية نجد أنّ قراءة القرآن كفّارة للذنوب، وستر من النار ... فروي عن رسول الله ﷺ: «**يا سلمان عليك بقراءَة القرآن فإنَّ قراءَته كفّارة للذنوب.**

(1) الكليني، الكافي، ج2، ص448.
(2) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 6، ص 168.
(3) م.ن، ج 6، ص 170.
(4) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج92، ص200.

وستـرٌ مـن النَّار. وأَمانٌ من العـذاب. ويُكتب لمن يقرأ بكلِّ آية ثوابَ مائة شـهيد. ويعطى بكلِّ سورة ثوابَ نبيّ مرسل. وتُنزَّلُ على صاحبه الرَّحمة. وتستغفر له الملائكة. واشتاقت إليـه الجنَّـة. ورضـي عنـه المولـى. وإنَّ المؤمـن إذا قـرأَ القرآن نَظَـرَ اللهُ إليـه بالرحمة، وأَعطاه بكلِّ حرف نوراً على الصراط...»[1].

وقراءة القرآن أفضل من الذكر:

روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«قراءَة القرآن في الصَّـلاة أَفضـل من قراءَة القرآن في غير الصَّلاة، وقراءَة القرآن في غير الصَّلاة أَفضل من ذكر الله»**[2].

2. كـيفية القراءة:

أ. القراءة والنظر في المصحف:

روي عـن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: **«ليس شـيءٌ أَشـدَّ على الشَّـيطان من القراءَة في المصـحف نظراً»**[3].

وعـن الإمام الصـادق، جعفر بـن محمَّد عليه السلام: **«من قـرأَ القـرآن في المصـحف مُتِّعَ ببصره، وخُفِّفَ عن والديه وإنْ كانا كافرين»**[4].

ب. القراءة تلاوة:

عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، في وصيَّة لولده محمَّد بن الحنفية:

«عليـك بتـلاوة القرآن في ليلك ونهارك، ولزوم فرائضـه وشـرائعه، وحلاله وحرامه، وأَمـره ونهيـه، والتهجّد به، والتِّلاوة في ليلك ونهارك، فإنَّه عهد من الله تعالى إلى خلقه فهو واجب على كلّ مسلم أَنْ ينظر كلّ يوم في عهده»[5].

(1) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج1، ص292.
(2) م.ن، ج1، ص292.
(3) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج92، ص202.
(4) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص449.
(5) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج1، ص293.

ج. كم يجب أن نقرأ؟

روي عن الإمام الصادق جعفر بن محمَّد عليه السلام: «**من قرأ مائة آية يُصلِّي بها في ليلة، كتب الله عزّ وجلّ له بها قنوت ليلة. ومن قرأ مائتي آية في غير صلاة كتب الله له في اللوح قنطاراً من الحسنات. والقنطار ألف ومائتا أُوقية والأوقية أعظم من جبل أُحد**»[1].

وعنه عليه السلام: «**يُدعى بابن آدم المؤمن للحساب فيتقدّمُ القرآن أمامَه في أحسن صورة فيقول: يا ربّ أنا القرآن وهذا عبدك المؤمن قد كان يُتعب نفسه بتلاوتي، ويُطيل ليله بتَرتيلي، وتفيض عيناه إذا تهجّد، فارضه عنّي كما أرضاني. فيقول العزيز الجبّار، عبدي ابسط يمينك، فيملأها من رضوان الله، ويملأ شماله من رحمة الله، ثمَّ يُقال له: هذه الجنَّة مباحة، فاقرأْ واصعد، فإذا قرأ آيةً صعدَ درجةً**»[2].

وعنه أيضاً عليه السلام: «**كان عليّ بن الحسين. صلوات الله عليه. أحسن النَّاس صوتاً بالقرآن، وكان السقَّاؤونَ يمرُّون فيقفون ببابه يسمعون قراءَته، وكان أبو جعفر الباقر عليه السلام أحسن النَّاس صوتاً -أي في قراءَة القرآن-**»[3].

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص445.
(2) م.ن، ص449.
(3) م.ن، ج2، ص451.

المفاهيم الرئيسة

- دلّت جملة من الأخبار على فضل القراءة في المصحف على القراءة عن ظهر القلب. كما أرشدتنا الأحاديث الشريفة إلى فضل القراءة في البيوت وتعاهد كتاب الله بالتلاوة الدائمة.
- إنَّ لقراءة القرآن العديد من الآثار المباركة على روحيَّة وشخصيَّة ومُنقَلَبِ الإنسان المؤمن.
- اعتبرت الرِّواياتُ والأحاديثُ أنَّ قراءة القرآن الكريم من أفضل العبادات التي يُمكِنُ للإنسان أَنْ يؤدِّيَها بشرط أنْ تقترن مع العمل والتَّطبيق.
- القراءة إذا كانت مقرونةً بالعمل والتَّطبيق الجيِّد والفعَّال، فإنَّها تكون سبباً لتكفير الذُّنوب.
- التِّلاوة بصوتٍ حسنٍ من الأمور التي تدلُّ على اهتمام الإنسان بالقرآن الكريم.

للمطالعة

ما تكلّمتْ إلّا بالقرآن

قال بعضهم: انقطعتُ في البادية عن القافلة فوجدتُ امرأة، فقلتُ لها: من أنت؟ فقالتْ ﴿وَقُلْ سَلَٰمٌۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[1]، فسلّمت عليها، فقلت: ما تصنعين ههنا؟ قالتْ: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ﴾[2]، فقلتُ: أمن الجنّ أنت أم من الإنس؟، قالتْ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ﴾[3]، فقلتُ: من أين أقبلت؟، قالتْ: ﴿يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾[4]، فقلتُ: أين تقصدين؟، قالتْ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾[5]، فقلتُ: متى انقطعت؟، قالتْ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[6]، فقلتُ: أتشتهين طعاماً؟، فقالتْ: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾[7]، فأطعمتها، ثم قلتُ هرولي ولا تعجلي، قالتْ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[8]، فقلتُ: أردفك؟ فقالتْ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾[9]، فنزلت فأركبتها، فقالتْ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾[10]، فلمّا أدركنا القافلة قلتُ: ألك أحد فيها؟ قالتْ: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ﴾[11] ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾[12] ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ﴾[13] ﴿يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾[14]، فصحت بهذه الأسماء، فإذا أنا بأربعة شباب متوجّهين نحوها، فقلتُ:

---

(1) سورة الزخرف، الآية 89.
(2) سورة الزمر، الآية 37.
(3) سورة الأعراف، الآية 31.
(4) سورة فصّلت، الآية 44.
(5) سورة آل عمران، الآية 97.
(6) سورة ق، الآية 38.
(7) سورة الأنبياء، الآية 8.
(8) سورة البقرة، الآية 286.
(9) سورة الأنبياء، الآية 22.
(10) سورة الزخرف، الآية 13.
(11) سورة ص، الآية 26.
(12) سورة آل عمران، الآية 144.
(13) سورة مريم، الآية 12.
(14) سورة طه، الآيتان 11 و 12.

مـن هـؤلاء منـك؟ قالـتْ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[1]، فلمّـا أتوهـا قالـتْ: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾[2]. فكافونـي بأشيـاء فقالـتْ: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾[3]. فـزادوا علـيّ، فسألتهـم عنهـا. فقالوا: هذه أمّنـا فضّة جارية الزهراء عليها السلام ما تكلّمت منذ عشرين سنة إلّا بالقرآن[4].

(1) سورة الكهف، الآية 46.
(2) سورة القصص، الآية 26.
(3) سورة البقرة، الآية 261.
(4) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 43، ص 86 – 87.

الدرس الثاني

أحكام القرآن والآداب الظاهريّة لتلاوته

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يتعرّف إلى أجر قارئ القرآن وثوابه.

2 . يدرك أهمّية المواظبة على قراءة القرآن الكريم.

3 . يُعدّد الآداب الظاهريّة لتلاوة القرآن.

مقدّمة

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴾[1].

لا غنى للمسلم عن مصاحبة القرآن وتلاوته، حيث يعيش الإنسان فيه مع الله تعالى ويقتبس من نوره. والتلاوة عبادة يُثاب عليها المؤمن ويؤجر على كلّ حرف يقرأه. ولكن كيف نقرأ القرآن، وكيف نستفيد من آياته؟ هل نقرؤه لمجرّد التلاوة؟ أم نقرؤه لنجعله نوراً لنا في ظلمات الجهل والدنيا يُسدّد وجهتنا ويُحسّن مسلكنا؟ ألم يقرع أسماعنا قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**كم من تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه لأنّه أقام حروفه وضيّع حدوده؟**»[2].

والأجر يتفاوت على قدر ما في التلاوة من تدبّر، وعلى قدر ما يؤدّي التدبّر إلى الغاية المطلوبة والهدف المراد الّذي يشير إليه تعالى في قوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ ﴾[3].

فالمطلوب أن تتحوّل تلاوة القرآن والاستماع لآياته إلى تأثّر وخشوع وخضوع لحضرة الباري سبحانه وتعالى يتجلّى في مقام العمل هدياً وسلوكاً والتزاماً بأوامر الله عزّ وجلّ ونواهيه.

وقد تعرّفنا في الدرس السابق على فضل القرآن وفضل تلاوته، وفي هذا الدرس نتعرّف على الآداب الظاهرية لتلاوة القرآن؟ وما هي شروطها؟ وكيف نحصّل الغاية القصوى من منافعها؟

---

(1) سورة فاطر، الآية 29.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 89، ص 184.

(3) سورة الزمر، الآية 23.

القرآن نور

ورد في الخبر عن رسول الله ﷺ: «**نوّروا بيوتكم بتلاوة القرآن**[1]». ولا شكّ أنّ ثواب التلاوة ليس لمن يقرأ القرآن ويمرّ عليه مروراً دون أن يتأثّر به قلباً وقالباً، فإذا عرض عليه عارض من الدنيا نسي القرآن وصاحب القرآن، نعوذ بالله من ذلك، بل الأجر لمن قرأ وتدبّر بتأدّب وتأمّل وعلم أنّ الّذي يُخاطبه هو الله سبحانه الّذي يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور. من هنا كان حقيقاً علينا أن نلتفت ونهتمّ ببعض الآداب الّتي ينبغي أن تقترن بتلاوتنا للقرآن، ونرجو من خلالها أن يكون تعبّدنا هذا موضعاً للقبول من حضرة الباري سبحانه وتعالى.

الآداب الظاهرية لتلاوة القرآن

لقد ذُكرت آداب متعدّدة لتلاوة القرآن، منها ما هو ظاهري، ومنها ما هو باطنيّ، وفي هذا الدرس ستتعرّف على الآداب الظاهريّة، وهي كثيرة، أهمها:

1. الطهارة:

والمقصود بالطهارة الخلوّ من الحدث الأكبر والأصغر بالوضوء أو الغسل أو التيمّم بدلاً عنهما. وقد جعل المولى ثواب قراءة القرآن ثواباً مضاعفاً، ففي الحديث: «**من استمع القرآن كُتب له بكلّ حرف حسنة ومن قرأ على وضوء كان له بكلّ حرف خمس وعشرون حسنة**»[2].

وقد صرّح الفقهاء بكراهة قراءة ما زاد على سبع آيات للجنب، مضافاً إلى حرمة قراءته آيات السجدة من سور العزائم الأربع: «**العلق**» و«**النجم**» و«**فصّلت**» و «**السجدة**».

2. تنظيف الفم:

عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «**إنّي لأحبّ للرجل إذا قام بالليل أن يستاك وأن يشمّ الطيب فإنّ الملك يأتي الرجل إذا قام بالليل حتّى يضع فاه على فيه، فما خرج**

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج 2، ص 610.

(2) الحر العاملي، محمد بن الحسن، الفصول المهمّة في أصول الأئمة، ج 3، ص 320، تحقيق القائيني، الطبعة الأولى، 1418 – 1376ش، قم، مؤسسة معارف إسلامي إمام رضا عليه السلام.

من القرآن من شيء دخل جوف ذلك الملك»[1].

فالفـم هـو طريق القـرآن، ولا يليق بطريـق القـرآن إلّا أن يكون طيّباً نظيفـاً؛ عن رسول الله ﷺ «**نظّفوا طريق القرآن**» قيل: يا رسول الله ﷺ وما طريق القرآن؟ قال: «**أفواهكم**» قيل: بماذا؟ قال: «**بالسواك**»[2].

وفي حديث آخر: «**طهّروا أفواهكم بالسواك فإنّها طرق القرآن**»[3].

3. الإقبال والتهيّؤ التامّ على التلاوة:

ينبغـي لقـارىء القـرآن أن يستقبل القبلـة، ويجلس بتـأدّب وخشوع، ويُقبـل على التلاوة متفرّغاً لها، وقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام: «**قارىء القرآن يحتاج إلى ثلاثة أشياء: قلب خاشع، وبدن فارغ، وموضع خالٍ. فإذا خشع لله قلبه فرّ منه الشيطان الرجيم**»[4].

4. البدء بالاستعاذة:

قال تعالى ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾[5].

مـن كمال الأدب أن يشرع القارئ في القراءة بالاستعـاذة، ويقصد بها تطهير القلب من تلوّثات الوسوسة الصارفة عن ذكر الله تعالى.

وختم القراءة بقوله: صدق الله العليّ العظيم ويدعو بالمأثور في بدء التلاوة وبعد الفراغ منها كما كان يفعل الأئمّة عليهم السلام.

5. قراءة القرآن في المصحف:

وفـي بعض الروايات ما يُفيـد أفضليّة قراءة القرآن مطالعة علـى قراءته حفظاً. وتظهر هـذه الأفضليّة في الآثـار المترتّبة، وقد ذكرنا في الدرس السابق بعضاً منها ونُضيف ما ورد عن الرسول الأعظم ﷺ: «**أفضل عبادة أمّتي تلاوة القرآن نظراً**»[6].

---

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 77، ص 343.
(2) م.ن، ج73، ص131.
(3) مستدرك الوسائل، ج1، ص368.
(4) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج 4، ص 241.
(5) سورة النحل، الآية 98.
(6) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 73، ص 320.

6. الترتيل بصوت حسن:

قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[1].

والترتيل هو بيان الحروف وإظهارها وحفظ الوقوف.

والمـراد بحفظ الوقوف أن لا يقف القـارئ كيفما كان، بل يقف حيث يكون الوقف حسناً. والمراد ببيان الحروف أن يُخرج الحروف كما ينبغي من جهر وهمس وإطباق واستعلاء على ما ذكره علماء التجويد.

والترتيل كما في بيان الإمام الصادق عليه السلام هو: «**أن تتمكّث فيه وتُحسّن به صوتك**»[2].

فتقرأ بإمعان من غير استعجال بحيث لو أراد السامع أن يعدّ الحروف لأوشك أن يعدّها. وتُحسّن به الصوت في خشوع وخشية.

وقال عليه السلام أيضاً: «**زيّنوا القرآن بأصواتكم**»[3].

والمقصود من حسن الصوت ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنّ من أحسن الناس صوتاً بالقرآن الّذي إذا سمعتموه يقرأ حسبتموه يخشى الله**»[4].

ويُستفـاد من الروايات أنّ الصوت الحسن يتـرك أثراً في قلب القارئ والمستمع على حدٍّ سواء، الأمر الّذي يُساهم في تليين القلوب القاسية، فإنّ كلام الله شفاء من كلّ مرض قلبيّ.

7. مكان القراءة:

بالإضافة لخصوصية الأماكن المقدّسة والمساجد، ينبغي للمسلم أنْ يقرأَ القرآن في بيته لما في ذلك من أثر هام؛ عن الإمام علي عليه السلام: «**البيت الذي يُقرأ فيه القرآن ويُذكر الله فيه تكثر بركته وتحضره الملائكة وتهجره الشياطين ويُضيء لأهل السماء كما تُضيء الكواكب لأهل الأرض وإنّ البيت الذي لا يُقرأ فيه القرآن ولا يُذكر الله فيه تقلّ بركته وتهجره الملائكة**

---

(1) سورة المزمل، الآية 4.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 89، ص 191.

(3) م. ن، ج 89، ص 190.

(4) المنذري، زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي، الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، ج 2، ص 364، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1408هـ - 1988م، بيروت، لبنان.

وتحضره الشياطين»[1].

8. مقدار القراءة:

عن الإمام الصادق عليه السلام: «**القرآن عهد الله إلى خلقه فقد ينبغي للمرء المسلم أنْ ينظر في عهده وأن يقرأ منه في كلّ يوم خمسين آية**»[2]. وقد ورد التأكيد على التروّي في القراءة: جاء عن الإمام الصادق لما سُئِل عن ختم القرآن كلّ يومٍ فقال عليه السلام: «**لا يُعجبني أنْ تقرأه في أقلّ من شهر**»[3].

9. الحزن والخشوع:

من آداب قراءة القرآن وتلاوته أنْ يستشعر المرءُ حالةَ الحُزن والخشوع. عن النبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنّ القرآن نزل بالحزن، فإذا قرأتموه فابكوا فإنْ لم تبكوا فتباكوا**»[4].

أحكام القرآن الشرعية

1- يحرم على المحدث بالحدث الأصغر والأكبر مسّ كتابة القرآن، ولا فرق بين آياته وكلماته، بل والحروف والمدّ والتشديد وأعارييها.

2- لا فرق في حرمة المسّ بين أجزاء البدن ظاهراً وباطناً، نعم لا يبعد جواز المسّ بالشعر.

3- يحرم على المجنب قراءة آيات السجدة من سور العزائم الأربع - وهي اقرأ والنجم وألم تنزيل وحم السجدة - ولو بعض منها حتّى البسملة بقصد إحداها[5].

4- يكره للمجنب قراءة ما زاد على سبع آيات غير العزائم. وتشتدُّ الكراهة إنْ زاد على سبعين آية، وكذلك مسّ ما عدا خطّ المصحف من الجلد والورق والهامش وما بين السطور، وكذا حمل المصحف وتعليقه.

---

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص610.
(2) الكافي، ج2، ص609.
(3) م.ن، ص617.
(4) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج 4، ص 271.
(5) الإمام الخامنئي دام ظله: الحرام هو قراءة نفس الآية دون بقية السُّورة.

5- يجب السجود عند تلاوة آيات أربع في السُّور الأربع: آخر النجم والعلق، و﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ في سورة السجدة و﴿تَعْبُدُونَ﴾ في سورة فصلت، وكذا عند استماعها دون سماعها على الأظهر، ولكن لا ينبغي ترك الاحتياط (عند السماع). والسبب (الموجب للسجود) مجموع الآية، فلا يجب بقراءة بعضها ولو لفظ السجدة منها وإن كان أحوط، ووجوبها فوريّ لا يجوز تأخيره، ولو أخّرها ولو عصياناً يجب إتيانها ولا تسقط[1].

6- يعتبر في هذا السجود بعد تحقّق مسمَّاه النية وإباحة المكان والأحوط وضع المواضع السبعة. ووضع الجبهة على ما يصحّ السجود عليه، وإن كان الأقوى عدم اللزوم، نعم الأحوط ترك السجود على المأكول والملبوس، بل عدم الجواز لا يخلو من وجه[2]، ولا يُعتبر فيه الاستقبال، ولا الطهارة من الحدث والخبث، ولا طهارة موضع الجبهة، ولا ستر العورة.

7- ليس في هذا السجود تشهد ولا تسليم ولا تكبيرة افتتاح نعم يستحبّ التكبير للرفع عنه، ولا يجب فيه الذكر، بل يُستحبّ ويكفي مطلقه، والأولى أنْ يقول: «**لا إله إلا الله حقّاً حقّاً، لا إله إلا الله إيماناً وتصديقاً، لا إله إلا الله عبودية ورقاً، سجدتُ لك يا ربّ تعبّداً ورقاً، لا مستنكفاً ولا مستكبراً بل أنا عبد ذليل خائف مستجير**».

8- يحرم تنجيس المصحف الكريم حتَّى جلده وغلافه ويجب إزالة النجاسة عنه. ووجوب تطهيره كفائي لا يختصّ بمن نجّسه، كما أنَّه يجب المبادرة مع القدرة على تطهيره، ولو توقّف ذلك على صرف مال وجب.

9- كما يحرم تنجيس المصحف، يحرم كتابته بالمداد النَّجس، ولو كتب جهلاً أو عمداً يجب محوه فيما ينمحي، وفي غيره كمداد الطبع يجب تطهيره.

10- الكافر لا يصحّ منه تملّك المصحف، فلا يصحُّ بيعه له ولا هبته ولا الوصية له بالقرآن بل وإعارته له، وكذا سائر أنواع التصرّفات الناقلة للقرآن إلى ملك الكافر[3].

---

(1) الإمام الخامنئي دَامَ ظِلُّهُ: إذا استمع إلى آية السجدة من الراديو أو التلفاز أو المسجّل وأمثال ذلك يجب عليه السجود.

(2) الإمام الخامنئي دَامَ ظِلُّهُ: يجب في سجود التلاوة وضع المساجد السبعة على الأرض ووضع الجبهة على ما يصح السجود عليه أيضاً.

(3) الإمام الخامنئي دَامَ ظِلُّهُ: إذا كان تمكين الكافرين من المصحف لغرض الهداية، فلا إشكال مع الأمن من هتكه وتنجيسه.

المفاهيم الرئيسة

- لا غنى للمسلم عن مصاحبة القرآن وتلاوته، حيث يعيش الإنسان فيه مع الله تعالى ويقتبس من نوره.
- التلاوة عبادة يُثاب عليها المؤمن ويؤجر على كلّ حرف يقرأه.
- للقراءة القرآنيّة آداب لا بدّ أن نلتزم بها حتّى نُحصّل أقصى درجات الأجر من الباري سبحانه وتعالى.
- لقد ذُكرت آداب متعدّدة لتلاوة القرآن منها ما هو ظاهريّ ومنها ما هو باطنيّ.
- الآداب الظاهريّة كثيرة، على رأسها: الطهارة، تنظيف الفم، استقبال القبلة والإقبال التام على التلاوة، البدء بالاستعاذة، قراءة القرآن في المصحف، الترتيل بصوت حسن.

للمطالعة

آثار التمسّك بالقرآن

القرآن الكريم كلام الله وللتمسّك بكلامه آثار طيّبة ومتنوعة منها:

1. **الهداية من الضلالة:** القرآن الكريم مظهر هداية الله، وسرّ النجاة من الضلالة: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[1]. وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنّي تارك فيكم الثقلين ما إنْ تمسّكتم بهما لن تضلُّوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي وإنَّهما لن يفترقا حتَّى يردا عليَّ الحوض**»[2].
2. **الارتقاء في مراتب الآخرة:** كلُّ آية من آيات القرآن الكريم تُمثِّلُ درجةً من درجات الجنَّة، وكلَّما تحقَّقَ الإنسانُ بآيةٍ من آيات الكتاب الإلهيّ، كلَّما ارتقى في مراتب الجنَّة. فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**عدد درج الجنَّة عدد آيات القرآن، فإذا دخل صاحب القرآن الجنَّة قيل له؛ اقرأ وارق لكلِّ آية درجة فلا تكون فوق حافظ القرآن درجة**»[3].
3. **الشِّفاءُ:** القرآن هو الشافي الحقيقي لأمراض النفوس المزيل لأمراض القلوب، وهو إكسيرُ السعادة في الدَّارين. فمن أراد أنْ يُطهّر باطنه من الأمراض والرذائل الأخلاقية والذُّنوب الممحقة ما عليه سوى التَّمسّك بهذا النور الإلهيّ. قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[4].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة له: «**واعلموا أنَّه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة ولا لأحد قبل القرآن من غنى فاستشفوه من أدوائكم واستعينوا به على**

(1) سورة الإسراء، الآية 9.
(2) الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج27، ص33.
(3) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج4، ص231.
(4) سورة الإسراء، الآية 82.

لأوائكم فإنَّ فيه شفاء من أكبر الداء وهو الكفر والنفاق والغيّ والضلال»[1].

وعنه عليه السلام أيضاً: «**وتعلّموا القرآن فإنَّه ربيع القلوب واستشفوا بنوره فإنَّه شفاء الصدور**»[2].

4. **النجاة من العذاب**: لأنّ الله تعالى لا يُعذِّبُ من تلبَّسَ برداء القرآن ظاهراً وباطناً، لأنّه صار مظهراً للقرآن خَلقاً وخُلقاً، ولأنّ القرآن هو الجنَّة نفسها. فعن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «**اقرؤوا القرآن واستظهروه فإنَّ الله تعالى لا يُعذِّب قلباً وعى القرآن**»[3].

(1) الشريف الرضي، خطب الإمام علي عليه السلام نهج البلاغة، ج 2، ص 91.
(2) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 6، ص167.
(3) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج4، ص245.

الدرس الثالث

الآداب الباطنيّة لتلاوة القرآن

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يتعرّف على الآداب الباطنيّة لتلاوة القرآن.

2 . يعرف أوجه عظمة القرآن.

3 . يفهم أهمّية تطبيق مفاهيم القرآن.

مقدّمة

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ﴾[1].

فللقرآن حقّ علينا وينبغي أن نوفّيه حقّه برعاية جملة من الآداب أثناء تلاوته والاستماع إليه، وفي تفسير الآية عن الإمام الصادق عليه السلام: «**يُرتّلون آياته ويتفهّمون معانيه ويعملون بأحكامه ويرجون وعده ويخشون عذابه ويتمثّلون قصصه ويعتبرون أمثاله ويأتون أوامره ويجتنبون نواهيه..**»[2].

وأفضل التلاوة تلك الّتي تُحقّق الهدف القرآنيّ الأوّل وهو الهداية، يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾[3]. ولحصول الهداية هناك آداب باطنية ومعنوية ينبغي مراعاتها، أهمّها:

1. الإخلاص في القراءة:

من الآداب المفيدة في تلاوة القرآن الكريم الإخلاص وقد وردت بذلك روايات كثيرة. منها ما رُوي عن الإمام الباقر عليه السلام: «**قرّاء القرآن ثلاثة: رجل قرأ القرآن فاتّخذه بضاعة واستدرّ به الملوك واستطال به على الناس، ورجل قرأ القرآن فحفظ حروفه وضيّع حدوده وأقامه إقامة القدح، فلا كثّر الله هؤلاء من حملة القرآن. ورجل قرأ القرآن فوضع دواء القرآن على داء قلبه فأسهر به ليله وأظمأ به نهاره وقام به في مساجده وتجافى به عن فراشه فبأولئك يدفع الله العزيز الجبّار البلاء، وبأولئك يُديل الله من**

---

(1) سورة البقرة، الآية 121.

(2) ورّام بن أبي فراس المالكي الأشتري، تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (مجموعة ورّام)، ج 2، ص 555. طبع مؤسسة دار الكتب الإسلامية، طهران، مطبعة حيدري.

(3) سورة البقرة، الآية 2.

الأعداء، وبأولئك يُنزّل الله الغيث من السماء، فوالله لَهؤلاء في قرّاء القرآن أعزّ من الكبريت الأحمر»[1].

2. **التعظيم:**

من الآداب المهمَّة لقراءة الكتاب الإلهيّ والتي يشترك فيه العالِم والعامّي، وتحصل منه النتائج الحسنة ويوجب نورانيَّة القلب وحياة الباطن: التعظيم. وهو موقوفٌ على فهم عظمة القرآن وجلاله وكبريائه. وهذا المعنى وإن كان بحسب الحقيقة خارجاً عن نطاق البيان وفوق طاقة البشر، لأنّ فهم عظمة كلّ شيء بفهم حقيقته، وحقيقة القرآن لا تحصل لأحد إلا الخلّص من أولياء الله الذين اشتركوا في روحانية رسول الله ﷺ وأهل بيته الأطهار وفنوا فيهم من خلال التبعية التامة لهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، إلا أن الإشارة الإجماليَّة إلى عظمة هذا الكتاب المنزّل، هي في متناول جميع البشر وموجبة لفوائد كثيرة.

أوجه عظمة القرآن المختلفة:

إنَّ عظمة كلِّ كلام وكتاب، تُقاسُ إمَّا بعظمة متكلّمه وكاتبه وإما بعظمة مطالبه ومقاصده، وإمَّا بعظمة نتائجه وثمراته، وإمَّا بعظمة الرسول والواسطة فيه، وإمَّا بعظمة المرسَل إليه وحامله، وإمّا بعظمة حافظه وحارسه، وإمّا بعظمة شارحه ومبيّنه، وإمّا بعظمة وقت إرساله وكيفيّته. وبعض هذه الأمور دخيل في العظمة ذاتاً وجوهراً، وبعضها عرَضاً وبالواسطة، وبعضها كاشف عن العظمة. وجميع هذه الأمور التي ذكرناها موجودة في هذه الصَّحيفة النُّورانية بالوجه الأعلى والأوفى، بل هي من مختَصَّاتها بحيث إنَّ غيره من الكتب إمّا ألاّ يشترك معه في شيء منها أصلاً، أو لا يشترك معه في جميع المراتب.

1. أمّا عظمة متكلِّمه ومُنشئه وصاحبه: فهو الله سبحانه وتعالى، العظيم المطلق الذي جميع أنواع العظمة المتصوَّرة، ما هي إلا رشحة من تجليات عظمته التي لا يُمكن أنْ يتجلَّى بها على أحد إلا من وراء آلاف الحجب والسرادقات، كما في الحديث: «**إنَّ لله تبارك وتعالى سبعين ألف حجاب من نور وظلمة لو كشفت لأحرقت سبحات وجهه ما دونه**»[2].

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج 2، ص 604.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج55، ص 45.

2. وأمّا عظمة محتوياته ومقاصده ومطالبه: يستدعي الحديث عن ذلك عقد فصل على حدة، بل فصول وأبواب مستقلّة وكتاب مستقلّ حتّى تخرج نبذة منها إلى حيّز البيان والتحرير، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾[1].
3. وأمّا عظمة رسول الوحي وواسطة الإيصال: فهو جبرائيل الأمين والروح الأعظم الذي يتّصل به الرسول الأكرم ﷺ بعد خروجه عن الجلباب البشري. وهو المَلك الموكل بالعلم والحكمة وصاحب الأرزاق المعنويّة والأطعمة الرُّوحانية. ونظرةٌ إلى ما ورد في كتاب الله وفي الأحاديث الشّريفة تكفي لإدراك مدى الإجلال والتعظيم الذي حُبي به جبرائيل وكيف أنَّه مقدَّم على سائر الملائكة.
4. وأمّا عظمة المرسَل إليه وحامله: فهو القلب التقي النقي الأحمدي المحمّدي الذي تجلّى له الحقّ تعالى بجميع شؤونه. وهو صاحب النُّبوَّة الخاتمة والولاية المطلقة. وهو أكرم البرية وأعظم الخليقة وخلاصة الكون وجوهرة الوجود وعصارة دار التحقّق وصاحب الخلافة العظمى.
5. وأمّا حافظه وحارسه: فهو ذات الحقّ المقدّسة جلّ جلاله، كما قال في الآية الكريمة المباركة: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[2].
6. وأمّا شارحه ومبيّنه: فالذّوات المطهّرة للمعصومين من رسول الله إلى حجّة العصر عليه السلام الذين هم مفاتيح الوجود ومخازن الكبرياء، ومعادن الحكمة والوحي وأصول المعارف.
7. وأمّا وقت الوحي: فهي ليلة القدر أعظم الليالي وخير الأشهر ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾[3].

(1) سورة الحجر، الآية 87.
(2) سورة الحجر، الآية 9.
(3) سورة القدر، الآيات 1 – 3.

3. التدبّر في القرآن:

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[1].

فالقراءة الّتي لا تدبّر فيها لا خير فيها. قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[2].

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «**إنّي لأعجب كيف لا أشيب إذا قرأت القرآن**»[3].

وجاء عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**ألا لا خير في علم ليس فيه تفهّم، ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبّر، ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقّه**[4]».

وعنه عليه السلام أنّه ذكر جابر بن عبد الله ووصفه بالعلم، فقال له رجل: جُعلت فداك، تصف جابراً بالعلم وأنت أنت؟ فقال عليه السلام: «**إنّه كان يعرف تفسير قوله تعالى:** ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾»[5] [6].

وعن الزهريّ قال سمعتُ عليّ بن الحسين عليه السلام يقول: «**آيات القرآن خزائن العلم، فكلّما فتحت خزائنه فينبغي لك أن تنظر فيها**»[7].

4. التفكّر:

من الآداب المهمّة لقراءة القرآن التفكّر. وقد كثرت الدعوة إلى التفكّر في القرآن الشريف.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[8].

وقال تعالى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[9].

---

(1) سورة محمد، الآية 24.
(2) سورة الحديد، الآية 16.
(3) الشيخ الكليني، الكافي، ج 2، ص 632.
(4) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 2، ص 49.
(5) سورة القصص، الآية 85.
(6) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 1، ص 26.
(7) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 92، ص 219.
(8) سورة النحل، الآية 44.
(9) سورة الأعراف، الآية 176.

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

والروايـات أيضاً في التفكّر كثيرة، فقد نُقل عن رسول الله ﷺ لمّا نزلت الآية الشريفة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[1]، قال ﷺ: «**ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكّر فيها**»[2].

5. التأثّر والخشية:

قـال تعالـى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[3].

وهذه أحوال المستمع لتلاوة القرآن المتدبّر فيه فكيف بمن يتلوه بنفسه؟

قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾[4].

6. البكاء والحزن:

فقد ورد عن النبيّ ﷺ: «**من قرأ القرآن ولم يخضع لله ولم يرقّ قلبه ولا يكتسي حزناً ووجلاً في سرّه، فقد استهان بعظيم شأن الله تعالى، فانظر كيف تقرأ كتاب ربّك ومنشور ولايتك، وكيف تجيب أوامره ونواهيه وكيف تمتثل حدوده؟**»[5].

والقـرآن كلام الحـقّ ومن الأدب حين نقرأ هـذا الكلام أن نُكبّـره ونُعظّمه؛ فلا نستهين بأوامره ونواهيه وإنذاره ووعيده وما يُنبىء عنه من حقائق وأسرار.

فـإنّ عظمة الله تعالى وقدرته المطلقة تجلّت لعباده في القرآن الكريم، ومن كمال الأدب ونحـن نقرأ القـرآن أن نستحضر الحزن في قلوبنـا والدمعة في عيوننـا، والخوف والشفقة فـي نفوسنـا كما هو حال النبيّ ﷺ حيـن كان يستمع إلى القرآن الكريـم، فقد كانت عيناه تفيضان بالدمع.

---

(1) سورة آل عمران، الآية 190.

(2) المنذري، الترغيب والترهيب، ج 2، ص 373.

(3) سورة الإسراء، الآيات 107 – 109.

(4) سورة الحشر، الآية 21.

(5) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 82، ص 43.

وعـن أمير المؤمنين عليه السلام في وصـف المتّقين: «**يُحزنون به أنفسـهم ويسـتثيرون به دواء دائهم، فإذا مرّوا بآية فيها تشـويق ركنوا إليها طمعاً، وتطلّعت نفوسـهم إليها شـوقاً، وظنّوا أنّها نُصب أعينهم، وإذا مرّوا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم وظنّوا أنّ زفير جهنّم وشهيقها في أصول آذانهم**»[1].

7. التطبيق:

ومن الآداب المهمّة لقراءة القرآن الّتي تُنيل الإنسان نتائج كثيرة واستفادة غير محدودة: التطبيق.

فمـن أراد أن يأخذ من القـرآن الشريف الحظّ الوافر فلا بدّ لـه أن يُطبّق كلّ آية شريفة علـى حالات نفسه حتّى يستفيد استفادة كاملـة، مثلاً يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[2].

فـلا بـدّ للسالك أن يُلاحظ هذه الأوصاف الثلاثة منطبقة عليـه، وهل قلبه يَجِلُ إذا ذُكر الله ويخـاف؟ وإذا تُليت عليه الآيات الشريفة هل يزداد إيماناً في قلبه؟ وهل اعتماده وتوكّله على الله تعالى أم أنّه محروم من ذلك؟

فإذا كان محروماً فليسعَ لتحصيل هذه الصفات. وهكذا كلّ آية يمرّ عليها يُطبّقها خارجاً، فالقرآن كتاب تطبيق لا كتاب ترتيل فحسب.

فكما أنّ خُلُق الرسول كان القرآن، فينبغي على القارئ المؤمن أن يكون خُلُقه القرآن.

---

(1) السيـد المرتضـى، الأمالي، منشورات مكتبة آية الله المرعشـي النجفي، ج 1، ص 25، الطبعة الأولى، 1325 – 1907م، ج 1، ص 25.

(2) سورة الأنفال، الآية 2.

المفاهيم الرئيسة

- للقرآن حقّ علينا وينبغي أن نوفّيه حقّه برعاية جملة من الآداب أثناء تلاوته والاستماع إليه.
- من آداب تلاوة القرآن الإخلاص والتدبّر، فلا خير في القراءة الّتي لا تدبّر فيها .
- ثم يأتي التفكّر فالتأثّر والخشية من الله تعالى فالبكاء والحزن.
- أهمّ آداب القرآن تطبيقه على حياتنا كما كان رسول الله يوصف بأنّ خُلُقه القرآن.

للمطالعة

النَّظر إلى القرآن نظرة تعلّم

مـن مقاصد هـذه الصَّحيفة الإلهيّة العظيمة ومطالبها المهمَّة التـي يكشفُ التَّوجّه إليها أهـمَّ طريقٍ للاستفادة الحقيقيَّة من الكتاب الشّريف، والـذي يفتح على قلب الإنسان أبواب المعارف والحكم، هو أنْ يكونَ نظرُ الإنسان إلى الكتاب الإلهيّ الشّريف نظرَ التَّعلُّم، وأن يراه كتاب التعليم والاستفادة، وأن يرى الإنسان نفسَه مكلّفاً بالتعلّم والاستفادة منه.

وليس المقصـود من التعلّم والاستفادة أنْ نتعلَّم منه الجهـات الأدبية والنّحو والصَّرف، أو نأخـذ منـه جهـة الفصاحة والبلاغـة والنِّكات البيانيَّـة والبديعيَّة، أو ننظـرَ في قصصه وحكاياتـه بالنَّظـر التاريخيّ والاطّلاعَ على الأمم السالفة... فليـس شيءٌ من هذا داخلاً في مقاصد القرآن، بل هي أمور بعيدة عن المقصد الأصلي والحقيقي للكتاب الإلهيّ.

والـذي أوجـب أنْ تكـون استفادتُنـا من هذا الكتـاب العظيم قليلـةً جدّاً هو هـذا الفهم الخاطـئ. فإمّـا أنَّنا لا ننظرُ إليه نظرةَ تعلُّم وتعليم كما هو الغالب علينا، أو أنَّنا نقرأه للثواب والأجـر فقط، فينصبُّ جهدنا على تجويده وقراءته قـراءةً صحيحةً حتَّى ننالَ الثَّواب فقط، ونحن واقفون عند هذا الحدِّ وقانعون بهذا. وعليه يُمكن لأحدنا أنْ يكون قد قرأ القرآن لأكثر من أربعين سنةً، ولكن دون أنْ تحصل الاستفادة منه إلا من جهة الأجر وثواب القراءة.

وإمّـا أنْ نحصُرَ اهتمامنـا إنْ كان هدفنا التعلّم والاستفادة، بالنّـكات البديعيّة والبيانية ووجـوه إعجازهـا، أو أعلى من هـذا بقليل بالجهـات التاريخية وسبب نـزول الآيات وأوقات النـزول، وكون الآيات والسُّـور مكيَّة أو مدنيَّة، واختلاف القـراءات واختلاف المفسّرين من العامّـة والخاصّة وسائر الأمور العرضيـة الخارجة عن المقصد الحقيقـي للكتاب المنزل. حتَّى صارت هذه الأمور بنفسها سبباً للاحتجاب عن القرآن والغفلة عن الذكر الإلهيّ.

فهـذا الكتاب الشّريف الـذي هو بشهادة من الله تعالى كتابُ الهداية والتَّعليم ونورُ طريق سلوك الإنسانيَّة، على الإنسان أنْ يجلس على مأدبته ليتعلَّمَ من كلّ قصّة من قصصه، بل من كلّ آيـة من آياته جهة الاهتداء إلى عالم الغيب وإلى طريق السَّعادة والكمال الإنساني. فعلى القارئ الحقيقي للقرآن الكريم أنْ يفهمَ المقصد من نزول الآيات لا السبب من النُّزول.

الدرس الرابع

الموانع والحجب

بين المستفيد والقرآن

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف الحجب الظَّلمانية التي تحول بين الإنسان والاستفادة من كتاب الله.
2. يفهم الموانع التي تصدُّ عن سبيل كتاب الله.
3. يستفيد من معرفة الحجب والموانع في عملية رفعها وإزالتها.

مقدّمة

إذا صــارت عظمــة كتــاب اللّه معلومةً من جميــع الجهات، وانفتــحَ على الإنســان طريقُ الاستفــادة الحقيقية منه، عندها ينبغي على المتعلّم والمستفيد من كتاب اللّه أنْ يجري أدباً آخر من الآداب المهمَّة حتَّى تحصل الاستفادة التَّامة، وهو رفع الموانع والعوائق الأساس التي تحــول دون الاستفادة الكاملة منه. وهذه الموانع نُعبّر عنها بالحجب بين المستفيد والقرآن، وهذه الحجب كثيرة نُشير إلى بعضها:

حجاب رؤية النَّفس مستغنيةً

من الحُجب العظيمة التي تحول بين الإنسان وبين الاستفادة من كتاب اللّه العزيز؛ حجابُ رؤيــة النفس مستغنية عن كتــاب اللّه، حيث يرى المتعلّم نفسه بسبــب هذا الحجاب مستغنٍ عنــه أو غير محتاج للاستفادة منه. وهذا يُعتبر من أكبر وأخطر مكائد الشَّيطان الذي يُزيّنُ للإنســان دائماً الكَمالات الموهومة، ويُرضيه ويُقنعه بما هو عليه، وما في يديه من الكمالات المحدودة الفانية والزائلة، ويسقط من عينه كلّ ما ليس بحوزته.

مثــلاً: قد يقنــع الشيطان أهل التجويد بــذاك العلم الجزئي ويُزيّنه فــي أعينهم ويسقط سائر العلوم من أعينهم ويُطبّق معنى «حملة القرآن» عليهم، ويحرمهم من فهم الكتاب الإلهيّ النورانــي ومن الاستفادة منه. ويُمكن أن يُرضــيَ أصحاب الأدب واللغة بتلك الصُّورة اللغوية والظاهريَّة الفاقدة للّب، ويصوّرَ لهم أنَّ جميع شؤون القرآن موجودة عندهم. وقد يشغل أهل التفاسير المتعارفــة بوجوه القراءات، والآراء المختلفة لأصحاب اللغة، ووقت النزول، وشأن النزول، وكون الآيات مكيَّة أو مدنيَّة وتعدادها، وتعداد الحروف وأمثال تلك الأمور...

فعلى كلِّ باحث عن الاستفادة الحقيقية من كتاب اللّه، أنْ يخرقَ جميع هذه الحجب، فلا

يقـف عندها بـل عليه أنْ ينظرَ إلى ما هـو أبعد من هذه الأمور، ولا يقنـع عند حدّ معيّن من القرآن الشّريف لكي لا يتأخّر عن قافلة السالكين فيُحْرَمَ من الدَّعوات الإلهيّة للاستفادة من هذه المأدبة السماوية.

والإشـارة إلى هذا المعنى في القصـص القرآنيّة كثيرة. فالنبيّ موسى كليم الله عليه السلام مـع مـا له من المقـام العظيم فـي النُّبـوَّة، لم يقتنـع بذلك المقـام ولم يتوقّـف عند مقام علمـه الشَّامخ، بل بمجـرَّد أن التقى بإنسان كامل كالخضر عليه السلام قـال له بمنتهى التواضع والخضـوع: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[1] وصار ملازماً لخدمته حتَّى أخذ منه العلومَ التي احتاج إليها.

والنبـيّ إبراهيـم عليه السلام لم يقتنع بمقام الإيمان والعلم الشامـخ الخاص بالأنبياء فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[2]، فـأراد أن يرتقـي مـن مقـام الإيمان القلبـي إلى مقام الاطمئنان الشهودي. وهناك ما هو أعظم من ذلك حيث يأمر الله تبارك وتعالى نبيّه الخاتم محمَّـد صلى الله عليه وآله وسلم وهو أعرف خلق الله على الإطلاق فـي الآية الكريمة الشّريفة: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[3] بأنْ لا يقف عند حدّ في طلب العلوم الربّانية والاستزادة منها. فهذه الأوامر الإلهيّة ونقل قصص الأنبياء وغيرها، إنّما هي لأجلِ أنْ يتنبَّهَ النَّاسُ ويستيقظوا من نوم الغفلة الذي يتخبَّطون فيه.

حجاب الآراء الفاسدة والعقائد الباطلة

ومن الحجب المانعة أيضاً التي تصدّ عن الاستفادة الصَّحيحة من القرآن الكريم؛ حجاب الآراء الفاسـدة والعقائد الباطلة، التي قد يكـون سببها سوء استعداد الشخص، والأغلب أنَّ سبَبَها الأساس هو التبعيَّةُ والتَّقليدُ الأعمى للغير.

وهـذا الحجاب من الحجب الرَّئيسة التـي تحجُبُ الإنسان عن معـارف القرآن وحقائقه النُّورانيَّـة، فمثـلاً إذا رسخ في قلوبنا اعتقادٌ مـا بمجرّد الاستماع إلـى الأب أو الأم أو بعض الجهلة، فإنَّ مثل هذه العقيدة قد تكون حجاباً بيننا وبين الآيات الشّريفة الإلهيّة. وإذا وردت

(1) سورة الكهف، الآية 66.
(2) سورة البقرة، الآية 260.
(3) سورة طه، الآية 114.

آلاف الآيات والرِّوايات التي تُخالف تلك العقيدة، فإمّا أن نصرفها عن ظاهرها أو أن لا ننظر فيها نظر الفهم. والأمثلة فيما يرجع إلى العقائد والمعارف كثيرة، نُشير إلى واحدةٍ منها من باب المثال حيث إنَّه أسهل للفهم.

إنَّ تلك الآيات الكثيرة الراجعة إلى معرفته ولقائه، والرِّوايات الكثيرة في هذا الموضوع، والإشارات العديدة والكنايات والتصريحات المتنوّعة في أدعية ومناجاة الأئمة عليهم السلام، مثل هـذه الشواهد الكثيرة بمجرّد مـا تصطدم بتلك العقيدة التي انتشرت بيـن عوام النَّاس أنّ طريق معرفة الله مسدود بشكل كامل أمامنا نحن البشر العاديّون، حيث يقيسون باب معرفة الله ومشاهدة جماله على باب الممنوع بل والممتنع في التفكُّر بذاته المقدّسة. فإمّا أن يؤوّلوا ويوجّهوا تلك الآيـات والرِّوايات، وكذلك الإشارات والكنايات والتصريحات في أدعية الأئمة ومناجاتهم، وإمّا ألّا يدخلوا في هذا الميدان أصلاً ولا يفتحوا على أنفسهم تلك المعارف التي هـي قرّة عين الأنبيـاء والأولياء. وممّا يوجب الأسف الشَّديد لأهـل الله، أنَّ باباً من المعرفة الذي يُمكن أن يُقال أنَّه غاية بعثة الأنبياء ومنتهى مطلوب الأولياء، قد سدّوه على النَّاس حتَّى صار التفوّه به، عند البعض كفراً محضاً ومحض الزندقة.

حجاب شبهة التفسير بالرأي

ومـن الحجب الغليظة المانعة من الاستفادة من هـذه الصَّحيفة النُّورانية، الاعتقاد بأنّه ليـس لأحدٍ حقُّ الاستفادة مـن القرآن الشّريف إلا من خلال ما كتبه المفسّرون وفهموه. فقد اشتبـه على النَّاس التفكُّر والتدبّر في الآيـات الشّريفة بالتفسير بالرأي الممنوع. ومن خلال هذا الرأي الفاسـد والعقيدة الباطلة جعلوا القرآن عارياً من جميع فنون الاستفادة واتَّخذوه مهجوراً كُلّياً.

إنَّ مـن المحتمل بل مـن المظنون أنّ التفسيـر بالرأي المنهي عنه هـو الراجع إلى آيات الأحـكام الشرعيـة التي تقصر عنها أيـدي الآراء والعقـول، والتي لا بـدّ وأنْ تؤخذ بصرف التعبّـد والانقياد من خزّان الوحي ومهابط ملائكة الله، لا إلى آيات المعارف والعلوم العقلية والأخلاقيـة. كما أنّ أكثـر الرِّوايات في هذا الباب وردت في مقابل فقهاء العامة الذين كانوا يريـدون أن يفهموا ديـن الله بعقولهم وقياساتهم. وما في بعض الرِّوايـات الشّريفة من أنَّه:

«**ليس شيء أبعد عن عقول الرجال من تفسير القرآن**»[1]، وكذلك الرواية الشّريفة: «**إنّ دين الله لا يُصاب بالعقول**»[2] تشهدُ بأنَّ المقصود من دين الله الأحكام التعبّديّة للدين، وإلا فباب إثبات الصانع والتَّوحيد والتقديس واثبات المعاد والنُّبوَّة بل مطلق المعارف حقّ مطلق للعقول ومن مختصَّاتها.

حجابُ الذُّنوب والمعاصي

ومن الحجب المانعة من فهم القرآن الشّريف، ومن الاستفادة من معارف هذا الكتاب السَّماويّ ومواعظه، حجاب المعاصي والذُّنوب الحاصلة من الطغيان وعصيان ربّ العالمين؛ التي تحجب القلب عن إدراك الحقائق الإلهيّة العزيزة، يقول تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[3].

فلكلِّ عملٍ من الأعمال الصالحة أو السيّئة صورةٌ وتأثيرٌ في الآخرة وعالم الملكوت تتناسب معه، ولـه صورةٌ أيضاً وتأثيرٌ في النَّفس الإنسانيَّة وملكوتها، تحصلُ بواسطتها إمّا النُّورانيةُ في النَّفس، فيكون القلب مطهَّراً ومنوَّراً، وفي هذه الحالة تكون النَّفس كالمرآة المصقولة الصافية، اللائقة للتجليات الغيبيّة وظهور الحقائق والمعارف فيه. وإمّا أن يصير باطن النفس بهذه الأعمال ظلمانياً وخبيثاً، وفي هذه الصُّورة يكون القلب كالمرآة المدنّسة، فلا تنعكس فيها المعارف الإلهيّة ولا الحقائق الغيبيّة. فيقع قلب الإنسان في هذه الحالة وبالتّدريج تحت سلطة الشَّيطان، ويكون إبليس اللَّعين هو المتصرِّفُ في مملكة روحه. ويقع السّمع والبصر وسائر القوى أيضاً تحت تصرّف ذاك الخبيث، وينسدُّ السَّمعُ بالكلِّية عن المعارف والمواعظ الإلهيّة. ولا ترى العين الآيات الباهرة الإلهيّة، وتعمى عن الحقّ وآثاره وآياته، ولا يتفقّهُ القلب في الدِّين ويحرم من التفكُّر في آيات الحقّ وتذكّرها، كما قال الحقّ تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[4]. فيكون نظره إلى العالم كنظر الأنعام المحرومة من نعمة التفكُّر والتدبّر، ويُصبح قلبه كقلوب الحيوانات التي لا نصيب لها من التفكُّر والتذكّر، بل يُمكن

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 89، ص 95.
(2) م. ن، ج 2، ص 303.
(3) سورة المطففين، الآية 14.
(4) سورة الأعراف، الآية 179.

أنّ تـزدادَ حالـةُ الغفلة والاستكبار فيه يوماً بعد يوم من جرّاء عـدم النظر في الآيات الإلهيّة وسماع المواعظ الربّانية، فيغدو أرذل وأضلّ من الحيوان.

حجاب حبّ الدُّنيا

ومـن الحجب الغليظة التي هي مانع سميـك بيننا وبين معارف القرآن ومواعظه؛ حجابُ حـبِّ الدُّنيا. حيث يصـرف القلب تمام همّته في الدُّنيا فتكون وجهـة القلب تماماً إلى الدُّنيا ويغفـل القلـب بواسطة هـذه المحبّة عن ذكر الله ويعرض عنه. وكلّمـا ازداد التعلّق بالدُّنيا وشهواتها ازداد حجاب القلب والساتر ضخامة. وربما تغلَّبت هذه العلاقة على القلب ويتسلّط سلطـان حبّ الجاه والشرف على القلب فينطفئ نـور فطرة الله تماماً، وتُغلقُ أبواب السعادة علـى الإنسـان. ولعلّ المراد من إقفـال القلوب المذكورة في الآيـة الشّريفة: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[1] هو هذه الأقفال والأغلال والعلائق الدنيوية.

فمـن أراد أن يستفيـدَ مـن القـرآن ويأخذَ نصيبه مـن المواعظ الإلهيّة لا بـدّ وأن يُطهّرَ قلبـه من هذه الأرجاس، ويُزيل أدران المعاصي القلبية والاشتغـال بغير الله من القلب، لأنّ القلـوب غير المطهّرة ليست حرمـاً لهذه الأسرار كما قـال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[2] فكمـا أنّ غيـر المطهّر بالطهـارة الظاهريَّة ممنـوع عن ظاهر هذا الكتاب ومسّه في العالم الظاهر تشريعاً وتكليفاً، كذلك من كان ملوّثاً بأرجاس التعلّقـات الدنيوية والمحدودة والفانية ممنوع من معارفـه ومواعظه وباطنه وسرّه قـال تعالـى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[3]. فغيـر المتّقـي محروم مـن أنوار القـرآن ومواعظه وعقائده الحقّـة. والآية الشريفة التالية تكفي لأهـل اليقظة بشرط التدبّر فيهـا، حيث قـال تبـارك وتعالـى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[4].

---

(1) سورة محمد، الآية 24.
(2) سورة الواقعة، الآيات 77 – 79.
(3) سورة البقرة، الآية 2.
(4) سورة المائدة، الآيتان 15 – 16.

المفاهيم الرئيسة

- إزالةُ الحجب والموانع بين المستفيد والقرآن شرط أساس لتحقيق الاستفادة الكاملة من كتاب الله.
- من الحجب التي تصدُّ عن سبيل القرآن، الشُّعور بالاستغناء عن كتاب الله، وعدم الحاجة الفعلية والضرورية إليه في مسيرة الإنسان الإيمانية والتكاملية.
- من الحجب التي تحولُ دون الاستفادة من القرآن الكريم الشُّبهاتُ العقائديَّة والاعتقادات الخاطئة المتعلِّقةُ بالقرآن فهماً وتأويلاً وتفسيراً.
- من الحجب التي تمنع من فهم حقائق القرآن والاستفادة منه أيضاً، تلوّث باطن الإنسان بالمعاصي والذُّنوب. فمعارف هذا الكتاب المقدّس وحقائقه لا يمسّه إلا المطهّرون من دنس الخطايا والآثام.
- حبّ الدُّنيا أيضاً والتعلّق بها يصرف القلب عن الله فتكون وجهته إلى غيره فيغفل القلب بواسطة هذه المحبّة عن ذكر الله ويعرض عنه،فيحجب عن معارف القرآن الحقّة.

للمطالعة

حجاب شبهة التفسير بالرأي

ومـن الحجب الغليظة المانعة من الاستفادة من هـذه الصَّحيفة النُّورانية: الاعتقاد بأنّه ليـس لأحد حقُّ الاستفادة مـن القرآن الشّريف إلا من خلال ما كتبه المفسّرون وفهموه. فقد اشتبـه على النَّاس التفكُّر والتدبّر في الآيـات الشّريفة بالتفسير بالرأي الممنوع. ومن خلال هذا الرأي الفاسـد والعقيدة الباطلة جعلوا القرآن عارياً من جميع فنون الاستفادة واتَّخذوه مهجـوراً كُلّياً؛ في حين أنَّ الاستفـادات الأخلاقيَّةَ والإيمانيَّةَ والسّلوكيةَ لا ربط لها بالتفسير، فكيف بالتفسير بالرأي.

فمثـلا إذا استفاد أحدٌ من كيفيَّة تباحث موسى مع الخضر وكيفيَّة تعاملهما، وشَدّ موسى رحالـه إليـه مع ما له مـن عظمة مقـام النُّبوَّة لأخذ العلـم منه، وكيفيَّة عرض حاجته على الخضر كمـا ذُكرت في الكريمة الشّريفـة: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[1]، وكيفيَّة جواب الخضر والاعتذارات التي وقعت من موسى، إذا استفاد منها عظمةَ مقام العلم وآداب سلوك المتعلّم مع المعلّم، والتي تبلُغ في الآيات المذكورة نحوَ عشرين أدباً، فما علاقة هذه الاستنتاجات بالتفسير، فضلاً من أن تكونَ تفسيراً بالرَّأي؟!

والاستفـادات من هذا القبيـل في القرآن كثيرة، ففي المعارف مثلاً؛ إذا استفاد أحد من قولـه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2] الذي يحصر جميـع المحامد بالله ويُخصّص جميع الثناءات بالحقّ تعالى، إذا استفاد منها التَّوحيد الأفعالي، وقال بأنّه يُستفاد من الآية الشّريفة أنّ كلّ كمـال وجمال وكلّ عزّة وجلال موجودة في العالـم والتي ينسبها القلب المحجوب إلى الخلائـق والموجـودات، هي مـن الحقّ تعالى وحـده وأنّه ليس لموجود من قِبَـل نفسه شيء، لـذا تكون المحمدة والثنـاء خاصة بالحقّ لا يُشاركه فيها أحد. فأيّ ربط لهذا بالتفسير حتَّى يُسمّـى بالتفسير بالرأي أو لا يُسمّى؟! إلى غير ذلك من الأمور التي تُستفاد من لوازم الكلام والتي لا ربط لها بأيّ وجه بالتفسير بالرأي.

---

(1) سورة الكهف، الآية 66.

(2) سورة الزمر، الآية 75.

مضافاً إلى أنّ في التفسير بالرأي كلاماً أيضاً، وهو أنَّه من المحتمل بل من المظنون أن التفسير بالرأي المنهي عنه هو الراجع إلى آيات الأحكام الشرعية التي تقصر عنها أيدي الآراء والعقول، والتي لا بدّ وأن تؤخذ بصرف التعبّد والانقياد من خزّان الوحي ومهابط ملائكة الله، لا إلى آيات المعارف والعلوم العقلية والأخلاقية. كما أن أكثر الرِّوايات في هذا الباب وردت في مقابل فقهاء العامة الذين كانوا يريدون أن يفهموا دين الله بعقولهم وقياساتهم. وما في بعض الرِّوايات الشّريفة من أنَّه: «**ليس شيء أبعد عن عقول الرجال من تفسير القرآن**»[1]، وكذلك الرواية الشّريفة: «**إن دين الله لا يصاب بالعقول**»[2] تشهدُ بأنَّ المقصود من دين الله الأحكام التعبّديّة للدين، وإلا فباب إثبات الصانع والتَّوحيد والتقديس وإثبات المعاد والنُّبوَّة بل مطلق المعارف حقٌّ مطلق للعقول ومن مختصَّاتها.

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج89، ص95.
(2) م. ن، ج2، ص303.

الدرس الخامس

مقاصد القرآن

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يتعرّف على مقاصد القرآن.

2 . يُبيّن دور القرآن في توطيد العلاقة مع الله.

3 . يشرح كلّيات الأخلاق الإيمانيّة في القرآن.

مقدمة

لقد تضمّن القرآن الكريم المقاصد الإيمانيّة الكاملة والحقائق الضروريّة لكمال الإنسان ورقيّه ووصوله إلى مقام القرب الإلهيّ.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[1].

وفـي ما يلي نذكر بعضاً من مقاصد القرآن العُليا ومضامينه الراقية الّتي تُيسّر للإنسان هدايته وتقويم حياته، ومنها:

أوّلا، معرفة اللّه:

إنّ قضيّـة الألوهيّة هـي موضوع العقيـدة الإسلاميّة الرئيس وبالتّالي فهـي تشمل الحيّز الأكبر من كتاب اللّه تعالى.

ومـا نزل القرآن ليقـول للناس إنّ هناك إلهاً، فإنّ الفطرة وأدنـى التأمّل بالوجود باعثان على الإقرار بوجود المبدع المنظِّم.

يقول تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[2].

إنّما المشكلة بأنّهم لا يعرفونه حقّ المعرفة ومن ثمّ لا يعبدونه حقّ العبادة، ومن ذا الّذي يُدرك هذا المقام؛ يقول تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾[3].

وعـن النبيّ ﷺ: «**لو عرفتـم الله حقّ معرفته لزالـت بدعائكم الجبال الراسـيات، ولا يبلغ أحد كُنه معرفته**»، فقيل: ولا أنت يا رسول اللّه؟ قال: «**ولا أنا، اللّه أعلى وأجلّ أن يطّلع أحد على كنه معرفته**».

---

(1) سورة الإسراء، الآية 9.

(2) سورة لقمان، الآية 25.

(3) سورة الأنعام، الآية 91.

ولهذا قال في دعائه : «**يا من لا يعلم ما هو إلا هو**».

وقال: «**سبحانك ما عرفناك حقّ معرفتك**»[1].

ولعلّ المعرفة المقصودة هي معرفة الذّات الإلهيّة حقّ المعرفة فمن ذا يُدركها؟ أمّا معرفته سبحانه بصفات الجمال والكمال فيُمكن إدراكها من خلال التأمّل في نِعَم الله سبحانه ومخلوقاته. ونظام الكون الّذي أتقن صنعه الجبّار.

يقول تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[2].

وقد دعا القرآن إلى توحيد الله تعالى بما يليق بذاته وصفاته وأفعاله.

يقول تعالى في مقام بيان الصفات: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ ...﴾[3]. ويقول سبحانه: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾[4].

الاحتجاجات الإلهيّة

هذه الدعوة لتوحيد الله تعالى ومعرفته بصفاته وأفعاله لم تكن دون دليل، فمن يقرأ في كتاب الله يُلاحظ أنّ القرآن يستعين في إبلاغ رسالته بلغتين هما لغة العقل ولغة القلب، فقد اعتبر القرآن العقل حجّة على العباد فدعا إلى إعماله والاستفادة منه، كما ذمّ من عطّله ولم يهتد بهداه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[5].

---

(1) ابن أبي جمهور الأحسائي، عوالي اللئالي، ج 4، ص 132.
(2) سورة النمل، الآية 88.
(3) سورة الحشر، الآيات 22 – 24.
(4) سورة الحشر، الآية 24.
(5) سورة الأنفال، الآية 22.

وقد أقام القرآن الدلائل والبراهين على مدّعياته، وتحدّى المنكرين على الإتيان ببراهين تنقضها: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1].

وفي الوقت الّذي يدعو فيه القرآن إلى إعمال العقل يُبيّن موانع إصابة العقل للحقّ والصواب كاتّباع الظنّ، وتقليد الآباء واتّباع الهوى.

قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾[2].

ويقول عزّ من قائل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[3].

فالقرآن لم يدع الإنسان إلى الإيمان بغير دليل بل ساق أدلّة برهانيّةً عقليّة وأخرى وجدانيّة، وخاطب الفطرة الإنسانيّة.

يقول سبحانه: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[4].

ثانياً، معرفة الأنبياء عليهم السلام:

يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ﴾[5] ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[6].

استعمل القرآن الكريم الأسلوب القصصيّ في تبليغ المفاهيم والعبر والمقاصد، لما لهذا الأسلوب من أثر كبير في القلوب، فذكر قصص بعض الأنبياء لنعتبر منهم ومن قصصهم، وليكونوا صلة وصل بين العباد وبين الله سبحانه.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾

(1) سورة البقرة، الآية 111.
(2) سورة النجم، الآية 23.
(3) سورة البقرة، الآية 170.
(4) سورة النمل، الآيتان 61 و 62.
(5) سورة يوسف، الآية 109.
(6) سورة يوسف، الآية 111.

فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾[1].

وتُشكّل القصص القرآنيّة جانباً هامّاً من النصّ القرآنيّ حتّى ورد في بعض الأحاديث أنّها ثلث القرآن، وهناك عدد كبير منها مختصّ بقصص الأنبياء عليهم السلام وتتركّز بشكل أساس في السور الّتي حمل بعضها اسم واحد من الأنبياء كسورة يونس وإبراهيم وهود وغيرها، وهذا الاستخدام الواسع لأسلوب القصّة يفيد بوضوح أنّ القصّة القرآنيّة لها مدخليّة مهمّة في تحقيق الأغراض والأهداف القرآنيّة.

كما أنّ القصّة في القرآن لا تخلو من نكات بلاغيّة، وقيمة تاريخيّة، ولمسات أدبيّة فنيّة، ودروس مستفادة من معاينة القدوة في سلوكه ومواقفه ليزداد الإنسان معرفة بالأنبياء الذين يُشكّلون القدوة الحسنة.

يقول الإمام الخميني قدس سره حول هذا الأمر:

«ومن مقاصد هذه الصحيفة النورانيّة قصص الأنبياء والأولياء والحكماء، وكيفيّة تربية الحقّ إيّاهم، وتربيتهم الخَلْق. فإنّ في تلك القصص فوائد لا تُحصى.. ففي قصّة خلق آدم عليه السلام والأمر بسجود الملائكة، وتعليمه الأسماء وقضايا إبليس وآدم الّتي تكرّر ذكرها في كتاب الله من التعليم والتربية والمعارف والمعالم - لمن كان ﴿لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[2] - ما يُحيّر الإنسان.. فليس هذا الكتاب كتاب قصّة وتاريخ بل هو كتاب السير والسلوك إلى الله، وكتاب التوحيد والمعارف والمواعظ والحِكَم»[3].

كما أنّ من الظواهر الّتي تُلفت النظر في القرآن ظاهرة التكرار في القصص وغيرها حيث نجد الحديث عن نبيّ واحد في أكثر من سورة، ويبدو ذلك جليّاً في الحديث عن نبيّ الله موسى عليه السلام، وحين ننظر إلى القرآن على أنّه كتاب هداية وتربية لهذه الأمّة والبشريّة، تتوضّح لدينا حكمة ذلك؛ لأنّ التربية تحتاج إلى التذكير الدائم، وليست التربية كلاماً يُقال مرّة وكفى قال تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[4].

---

(1) سورة النحل، الآية: 36.
(2) سورة ق، الآية 37.
(3) القرآن الثقل الأكبر، جمع لكلمات الإمام الخميني قدس سره، ص40.
(4) سورة الذاريات، الآية 55.

ثالثاً، معرفة المعاد وبيان أحواله:

هنـاك جانـب آخر أخذ حيّزاً هامّاً من مطالب ومضمـون النصّ القرآنيّ، وذلك في بيان مسألة الإيمان باليوم الآخر وإقامة الأدلّة والبراهين على إثباته.

حتّـى أنّ القرآن الكريم يُلحق مسألة الإيمان باليوم الآخر في كثير من المواضع بالإيمان بـالله مباشرة إثباتاً ونفيـاً، فيصف المؤمنيـن بأنّهم هم الّذين يؤمنون بـالله واليوم الآخر ويصف الكافرين بأنّهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.

والقرآن في حديثه المستفيض عن المعاد أراد إثباته أوّلاً للجاحدين به والمنكرين للبعث والحساب، فساق الأدلّة النظريّة والبراهين العقليّة وأتبعها بأمور وجدانيّة يراها الإنسان بأمّ عينه.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾[1].

ثـمّ ببيان حوادث جُرّبت في التاريـخ وأورد قصّتها القرآن لمزيـد يقين كقصّة أصحاب الكهف وقصّة العُزير الّذي أماته الله مائة عام ثمّ بعثه.

ولئـن كان للحديث عن البعـث والحساب بعض أسبابه الّتي تعود إلـى إنكار العرب البائّ للبعـث، ولكـنّ بعضه الآخر كان لضرورة ترسيخ هذه العقيدة في نفوس المؤمنين لما لها من تأثيـر بالـغ في سلوك الإنسان، فإنّه لا شيء يُمكن أن يدفع الإنسان للتنازل عن المتاع الزائد عن الحدّ المدفوع إليه بغريزته والالتزام بالحدود الّتي رسمها الله إلّا الإيمان الجازم بأنّ ما يتركه في الدنيا طاعة لله يلقاه في الآخرة مضاعفاً، ولا يزول أبداً.

ويغدو حديث القرآن عن الآخرة بمثابة شريط حافل بالمشاهد الحيّة حتّى لكأنّ الإنسان يُخيّل إليه أنّه يراها عياناً وليست حديثاً عن المستقبل. إنّه شريط يجمع بين مشاهد العذاب ومشاهد النعيم ليختار الإنسان أيّهما شاء.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[2].

(1) سورة ق، الآيات 9-11.

(2) سورة القمر، الآيتان 54- 55.

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا﴾[1].

ويقول نعوذ بلطفه من عذابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[2].

رابعاً، الأخلاقيّات الإيمانيّة في القرآن:

موضوع آخر من موضوعات القرآن الكريم ومقصد من مقاصده هو الأخلاقيّات الإيمانيّة وما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون بوحي من إيمانهم، في مقابل ما هم عليه الكافرون والفاسقون بوحي من ضلالتهم.

يقول الإمام الخميني قدس سره: «ومن مقاصده ومطالبه الدعوة إلى تهذيب النفوس وتطهير البواطن من أرجاس الطبيعة وتحصيل السعادة. وبالجملة كيفيّة السير والسلوك إلى الله تعالى، وهذا المطلب الشريف منقسم إلى شعبتين مهمّتين:

إحداهما: التقوى بجميع مراتبها المندرجة فيها التقوى عن غير الحقّ، والإعراض المطلق عمّا سوى الله.

وثانيهما: «الإيمان بتمام المراتب والشؤون المندرجة في الإقبال على الحقّ، والرجوع والإنابة إلى ذاته المقدّسة، وهذا من المقاصد المهمّة لهذا الكتاب الشريف وأكثر مطالبه ترجع إلى هذا المطلب إمّا بلا واسطة أو مع الواسطة»[3].

والأخلاق ليست شيئاً ثانويّاً في هذا الدّين، كما إنّها شاملة للسلوك البشري كلّه ولا يوجد عمل واحد يخرج عن دائرة الأخلاق فالصلاة لها أخلاق هي الخشوع، والكلام له أخلاق وهو الإعراض عن اللغو، والتعامل مع الآخرين له أخلاق هي الوفاء والصدق ورعاية العهد.

وقد قال تعالى بحقّ الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[4]. ولكنّه أيضاً (أي

(1) سورة الإنسان، الآيات 20- 23.
(2) سورة التحريم، الآية 6.
(3) القرآن الثقل الأكبر، جمع لكلمات الإمام الخميني قدس سره، ص29-40.
(4) سورة القلم، الآية 4.

الخُلق) من خصوصيّات الإيمان ومقتضياته.

وقد اهتمّ القرآن المجيد بإبراز الجانب السلوكيّ الأخلاقيّ للعقيدة المنحرفة قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾[1].

يُقابل ذلك إبراز السلوك الأخلاقيّ الصحيح المصاحب للعقيدة الصحيحة: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾[2].

فالقرآن هو مفتاح سعادة الإنسان وباب فلاحه: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾[3]. وهو شفاء ورحمة لكلّ من تمسّك به، وفي ما يلي نماذج من آيات القرآن تكشف عن عمق معانيه ودقّة أفكاره في مجال نظام السير والسلوك إلى الله تعالى:

أ - العلاقة مع الله:

فالقرآن الكريم يوثّق الإيمان في القلب ويربط ذلك القلب بالله في جميع أحواله؛ لأنّه يربط الأحوال كلّها والوجود كلّه بالله سبحانه: فالمولد والممات بيد الله، والرزق بيد الله بجميع ألوانه وأشكاله، وبيده الضرّ والنفع، ثمّ البعث والحساب والثواب والعقاب؛ أمورٌ كلّها بيد الله.

فالله تعالى في كتابه يُعرّفنا بنفسه لنعرفه كما ينبغي لجلال وجهه. فهو يُعرّفنا نفسه بأنّه: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾. وأنّه ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾[4]، وأنّه ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ...﴾[5]. ليولّد في قلوبنا ذلك الإحساس برقابة الله، فنحرص على نقاوة أعمالنا ومشاعرنا.

(1) سورة القلم، الآيات 10-16.
(2) سورة الفرقان، الآية 63.
(3) سورة طه، الآيتان 1 و 2.
(4) سورة طه، الآية 7.
(5) سورة المجادلة، الآية 7.

ويُعرّفنا بأنّ: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1]. وأنّ بيده ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[2].

لنتطلّع إليه وحده في السرّاء والضرّاء، ولنواجه المصاعب والشدائد بالصبر والتعلّق به وبفرَجه المنزَل من عنده.

ويُعرّفنا بأنّه ﴿ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[3]. ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾[4].

يُعلّمنا بذلك أن لا يُشغلنا القلق على الرزق، وأنّ البشر ليسوا هم من يتصرّفون في أرزاقنا، بل ذلك كلّه بيده وحده وكذلك يُعرّفنا بأنّه هو الّذي يحيي ويميت، وليس هذا شأنه فحسب بل هو بعدُ ملك ومالك يوم الدِّين.

هذا ما تُقرّره هذه الآيات الكريمة وغيرها من كتاب الله ليعيش القلب آفاق معرفة الله تعالى ومنهجاً وسلوكاً، وتكون حياته كلّها مع الله.

ب- العلاقة مع الآخر:

وكما اهتمّ القرآن الكريم بإبراز الجانب السلوكي والأخلاقي للعقيدة المنحرفة وندّد به وبأصحابه، كذلك أولى عنايةً واضحةً بإبراز السلوك الأخلاقيّ الصحيح وأفق التعاطي الصحيح مع الآخرين.

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[5].

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[6].

فمنطق القرآن هو: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[7].

---

(1) سورة الزمر، الآية 63.
(2) سورة يس، الآية 83.
(3) سورة الذاريات، الآية 58.
(4) سورة الرعد، الآية 26.
(5) سورة الشورى، الآيات 40 – 43.
(6) سورة الممتحنة، الآية 8.
(7) سورة الأعراف، الآية 199.

ج- الاستقامة:

ويُمكن بحقّ أن نُلخّص مبادئ الإسلام كلّها بكلمة الاستقامة، فإنّها الكلمة الشاملة للاستقامة في العقيدة بما فيها التوحيد عن الشبيه، والاستقامة في الأعمال والأخلاق وجميع التعاليم.

ومعنى الاستقامة هو أن نقف عند حدود الله ولا ننحرف عن الحقّ إلى الباطل وعن الهداية إلى الضلال. أن نسير بعقيدتنا وأقوالنا وأفعالنا على الصراط المستقيم، فعن الإمام علي عليه السلام قال: «**قُلتُ: يا رسول الله أوصني، قال: قل ربّي الله، ثمّ استقم، قال: قُلتُ: ربّي الله وما توفيقي إلّا بالله عليه توكّلت وإليه أُنيب، فقال** صلى الله عليه وآله وسلم: **ليهنئك العلم يا أبا الحسن، لقد شربت العلم شرباً ونهلته نهلاً**»[1].

يقول تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2].

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾[3].

﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[4].

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[5].

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[6].

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[7].

---

(1) بحار الأنوار، العلّامة المجلسي، ج40، ص178.

(2) سورة الملك، الآية 22.

(3) سورة هود، الآية 112.

(4) سورة الأنعام، الآية 79.

(5) سورة الأنعام، الآية 162.

(6) سورة الفاتحة، الآية 5.

(7) سورة الكهف، الآية 110.

المفاهيم الرئيسة

لقد تضمّن القرآن الكريم المقاصد الإيمانيّة الكاملة والحقائق الضروريّة لكمال الإنسان ورقيّه ووصوله إلى مقام القرب الإلهيّ.

منها:

- أوّلا، معرفة الله: فالناس لا يعرفونه حقّ المعرفة ومن ثمّ لا يعبدونه حقّ العبادة.
- ثانياً، معرفة الأنبياء عليهم السلام. يقول الإمام الخميني قدس سره في هذا الأمر: «ومن مقاصد هذه الصحيفة النورانيّة قصص الأنبياء والأولياء والحكماء، وكيفيّة تربية الحقّ إيّاهم، وتربيتهم الخلق. فإنّ في تلك القصص فوائد لا تُحصى..»
- من مقاصد القرآن معرفة المعاد وبيان أحواله وقد أخذ حيّزاً هامّاً من مطالب ومضمون النصّ القرآنيّ، من خلال بيان مسألة الإيمان باليوم الآخر وإقامة الأدلّة والبراهين على إثباته.

منها: الأخلاقيّات الإيمانيّة وما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون بوحي من إيمانهم، في مقابل ما هم عليه الكافرون والفاسقون بوحي من ضلالهم. يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: «ومن مقاصده ومطالبه الدعوة إلى تهذيب النفوس وتطهير البواطن من أرجاس الطبيعة وتحصيل السعادة...»

- يرسم القرآن للإنسان خريطة للعلاقة مع الله ومع نفسه ومع الآخرين...
- ويؤكّد على أهميّة الاستقامة بوقوفنا عند حدود الله وعدم الانحراف عن الحقّ إلى الباطل.

للمطالعة

النبع الفيّاض

يقول الإمام الخميني قدس سره: «أوصي الإخوة الأعزّاء أن لا يغفلوا... عن الاستئناس بالقرآن الكريم، هذه الصحيفة الإلهيّة وكتاب اللّه الهادي، فكلّ ما عند المسلمين وما سيكون عندهم خلال عصور التاريخ الماضية والقادمة إنّما هو من البركات المغدقة لهذا الكتاب المقدّس. وبهذه المناسبة أطلب من كلّ العلماء الأعلام وأبناء القرآن والعلماء العظام أن لا يغفلوا عن هذا الكتاب المقدّس الّذي فيه تبيان كلّ شيء،...

والآن فإنّ الصورة المدوّنة لهذا الكتاب المأخوذ عن لسان الوحي بعد النزول قد وصلت إلى أيدينا كاملة دون زيادة حرف أو نقصان حرف، فالحذر الحذر من هجره لا سمح اللّه.

نعم، الأبعاد المختلفة لهذا الكتاب بكلّ آفاقها ليست في متناول البشر العاديّين لكن على أهل المعرفة والتحقيق في الفروع المختلفة أن ينهلوا بقدر علمهم ومعرفتهم وكفاءاتهم من هذا الكنز العرفانيّ الإلهيّ الفيّاض والبحر الموّاج النازل على محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، ويُقدّموه بتعبيرات مختلفة قريبة للأذهان إلى الآخرين... والمتّقون التوّاقون إلى الهداية عليهم أن يحملوا بارقة ممّا أخذوه من نور التقوى عن هذا النبع الفيّاض بالهدى للمتّقين إلى العشّاق الوالهين إلى الهداية الإلهيّة.

... اجعلوا تدريس القرآن نصب أعينكم في جميع أبعاده، كي لا تندموا وتأسفوا لا سمح اللّه على ما فات من شبابكم حين يهجم عليكم ضعف الشيب في آخر العمر، مثل كاتب هذه السطور»[1].

(1) صحيفة الإمام الخميني قدس سره، ج 20، ص 81.

المحور الثاني

علوم ومعارف قرآنيّة

الدرس السادس

أسماء القرآن وأوصافه

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يعرف معنى القرآن وأسماءه.

2 . يشرح أوصاف القرآن.

3 . يفهم نكات كون لغة القرآن عربية.

معنى القرآن

أ. المعنى اللغوي: تعدّدت آراء اللغويين والباحثين في علوم القرآن في تحديد معنى القرآن وأصله الاشتقاقي اللغوي إلى أقوال كثيرة[1]، أهمّها وأقواها أنّ القرآن:

اسم مهموز مصدر لقرأتُ؛ بمعنى التلاوة؛ كالرجحان والغفران، سُمّي به الكتاب المقروء من باب تسمية المفعول بالمصدر؛ أي المقروء أو ما يُقرأ. واستخدم القرآن بمعنى القراءة، كالكتاب الذي يُطلق على المكتوب؛ بمعنى الكتابة.

والقـرَاءَةُ في اللغة هي: «ضمّ الحروف والكلمات بعضها إلى بعضها الآخر في الترتيل... لا يُقال: قرأت القوم: إذا جمعتهم، ويدلّ على ذلك أنّه لا يُقال للحرف الواحد إذا تُفُوِّه به قراءة، والْقُرْآنُ في الأصل مصدر، نحو: كفران ورجحان. قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾[2]»[3].

والمعنى لا تعجل به إذ علينا أن نجمع ما نوحيه إليك؛ بضمّ بعض أجزائه إلى بعض، وقراءته عليك، فلا يفوتنا شيء منه حتى يحتاج إلى أن تسبقنا إلى قراءة ما لم نُوحِه بعد. وقيل: المعنى إنّ علينا أن نجمعه في صدرك؛ بحيث لا يذهب عليك شيء من معانيه، وأن نثبّت قراءته في لسانك؛ بحيث تقرأه متى شئت. وهذا لا يخلو من بعد. وقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ

(1) لمزيد من التفصيل: انظر: الزركشي، بدر الدين: البرهان في علوم القرآن، ص273-276، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، لام، دار إحياء الكتب العربية؛ عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، 1376هـ.ق/ 1957م، ج1، السيوطي، جلال الدين: الإتقان في علوم القرآن، تحقيق سعيد المندوب، ط1، بيروت، دار الفكر، 1416هـ.ق/ 1996م، ج1، ص144؛ الزرقاني، عبد العظيم: مناهل العرفان في علوم القرآن، ج1، ص15-17، تحقيق فوّاز أحمد زمَرلي، ط1، بيروت، دار الكتاب العربي، 1415هـ.ق/1995م.

(2) سورة القيامة، الآيتان 17 و18.

(3) الأصفهاني، الراغب: مفردات ألفاظ القرآن، ص668، تحقيق صفوان داوودي، قم المقدّسة، نشر طليعة النور؛ مطبعة سليمان زاده، 1427هـ.ق، ط2، مادّة «قرأ».

﴿قُرْءَانَهُۥ﴾؛ أي: فإذا أتممنا قراءته عليك وحياً؛ فاتّبع قراءتنا له، واقرأ بعد تمامها[1].

ب. **المعنى الاصطلاحي**: ذُكِرَت فيه تحديدات مختلفة، وردت عليها إشكالات عدّة، ولعلّ أقلّها محلاً للإشكالات ما اشتهر على لسان الأصوليين والفقهاء واللغويين ويوافقهم عليه المتكلّمون: «اللفظ المنزل على النبي ﷺ، المنقول عنه بالتواتر، المتعبّد بتلاوته».

أسماء القرآن

اختلف الباحثون في علوم القرآن في عدد أسماء القرآن، وتفاوتت تحديداتهم في هذا الصدد، حيث حصر بعضهم أسماء القرآن في اسم «القرآن» فقط، وعدّ الأسماء الأخرى المتداولة مجرّد صفات للقرآن وليست أسماء له[2]، وذهب آخرون إلى أنّ للقرآن 55 اسماً[3]، وآخرون إلى أنّ له 95 اسماً[4]...

ولعلّ السبب في هذا الاختلاف راجع إلى وجود خلل في التمييز بين أسماء القرآن وصفاته، أو إلى تباين الأذواق والمعايير المعتمدة في تحديد الأسماء والصفات[5]. واسم الشيء، هو تعريفه وتشخيصه في الخارج ضمن أبعاد وحدود تحكي ماهيّة المسمّى ويُعرَف بها. وأمّا الصفة فهي تحكي خاصيّة معيّنة من المسمّى وعليه، فأسماء القرآن هي خصوص المعرّفات والمشخّصات التي تحكي عن القرآن في الخارج من أنّه كلام الله تعالى المنزل على نبيّه ﷺ بالإعجاز. وأمّا صفات القرآن فهي تحكي عن خاصيّة معيّنة يشتمل عليها القرآن من قبيل: الهداية، التبشير، الإنذار... .

والمشهور من الأسماء، هو التالي[6]:

أ. **القرآن**: وردت مفردة «قرآن» 68 مرّة في القرآن الكريم (قرآن: 58 مرّة/ قرآناً:

(1) انظر: الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، ج20، ص109-110، لاط، قم المقدّسة، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، لات.

(2) انظر: العسكري، مرتضى: معالم المدرستين، ج2، ص13-15، لاط، بيروت، مؤسّسة النعمان، 1410هـ.ق/ 1990م.

(3) انظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص273؛ السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، م.س، ج1، ص141.

(4) انظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص273.

(5) انظر: الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج1، ص17.

(6) انظر: الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج1، ص15-17.

10 مـرّات)[1]. وأُريـد بها: تارة مجموعة مـن الآيات؛ كما في قولـه تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ...﴾[2]، وقولـه تعالـى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[3]. وتـارة أخـرى مجمـوع الكتاب (أي مـا بين الدفّتين)، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾[4]. وقد تقدّم معنى القرآن لغة واصطلاحاً.

ب. **الفرقـان**: وردت مفـردة «فرقـان» 6 مـرّات فـي القـرآن الكريـم[5]. والفرقـان من الفـرق والتفرقـة، ويُراد بهـا ما يفرق بين الحـقّ والباطـل[6]. وروي أنّه سُئِـلَ الإمام الصـادق عليه السلام عـن القرآن والفرقـان أهما شيئـان أم شيء واحـد؟ فقال عليه السلام: «**القرآن جملة الكتاب، والفرقان الحكم الواجب العمل به**»[7].

ج. **الذِّكْـر**: وردت مفـردة «ذِكْـر» 52 مرّة فـي القرآن الكريـم[8]، وأُريد بهـا القرآن في بعـض المواضع فقط؛ كما في قوله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ﴾[9]، وقوله تعالى: ﴿... وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[10]، وقولـه تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ ﴾[11]. ويُراد بالذِّكْر: الشرف[12].

---

(1) روحاني، محمود: المعجم الإحصائي لألفاظ القرآن الكريم، ج3، ص1154، ط1، مشهد المقدّسة، مؤسّسة الآستانة الرضوية المقدّسة، 1372هـ.ق/ 1987م.

(2) سورة الإسراء، الآية 82.

(3) سورة الأعراف، الآية 204.

(4) سورة الإسراء، الآية 106.

(5) انظر: روحاني، المعجم الإحصائي لألفاظ القرآن الكريم، ج3، ص1082.

(6) انظر: ابن فارس، أحمد: معجم مقاييس اللغة، ص493–495، تحقيق عبد السلام هارون، لاط، لام، مكتب الإعلام الإسلامي، 1404هـ.ق، ج4، مادّة«فرق».

(7) الشيخ الكليني، الكافي، ص 630،ج2.

(8) انظر: روحاني، المعجم الإحصائي لألفاظ القرآن الكريم، ج2، ص746.

(9) سورة الأنبياء، الآية 50.

(10) سورة النحل، الآية 44.

(11) سورة الزخرف، الآية 44.

(12) انظر: الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص 328، مادّة«ذكر».

د. **الكتاب**: وردت مفردة «كتاب» 230 مرّة في القرآن الكريم[1]؛ كما في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ ... ﴾[3]. والكتاب هو: جملة ما هو موجود بين الدفّتين. وقد استعمل في القرآن الكريم وأُريد به: تارة ما أُنزِلَ على الأنبياء والرسل عليهم السلام من كلام الله تعالى المُوحَى إليهم، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾[5]، وقوله تعالى -على لسان نبيّه عيسى عليه السلام-: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ ... ﴾[6]. وتارة استعمل الكتاب بمعنى خصوص المكتوب على نحو المراسلات والمخاطبات؛ كما في قوله تعالى -في معرض حكايته لقصة النبي سليمان عليه السلام وملكة سبأ-: ﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ٢٨ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ﴾[7]. وتارة استعمل بمعنى صحيفة أعمال الإنسان؛ كما في قوله تعالى: ﴿... مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ ... ﴾[8]، وقوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴾[9].

هـ. **التنزيل**[10]: وردت مفردة «تنزيل» 11 مرّة في القرآن الكريم[11]؛ كما في قوله تعالى:

(1) انظر: روحاني، المعجم الإحصائي لألفاظ القرآن الكريم، ج3، ص1211.
(2) سورة البقرة، الآية 2.
(3) سورة فاطر، الآية 32.
(4) سورة مريم، الآية 12.
(5) سورة الإسراء، الآية 2.
(6) سورة مريم، الآية 30.
(7) سورة النمل، الآيتان 28 و 29.
(8) سورة الكهف، الآية 49.
(9) سورة الإسراء، الآيتان 13 و 14.
(10) عدّه عبد العظيم الزرقاني من أسماء القرآن الكريم. انظر: الزرقاني، مناهل العرفان، ج1، ص15.
(11) انظر: روحاني، المعجم الإحصائي لألفاظ القرآن الكريم، ج2، ص584.

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾[3]. ويُراد من التنزيل: القرآن النازل مفرّقاً مرّة بعد أخرى[4].

و. **المصحف**: لم يرد ذكر هذه المفردة في القرآن الكريم، ولكن اشتهر تداولها بين المسلمين بعد رحيل الرسول الأكرم ﷺ؛ بوصفها اسماً من أسماء القرآن الكريم. ولعلّ اشتهار تداولها يعود إلى شدّة انشغال المسلمين واهتمامهم بعد رحيل الرسول الأكرم ﷺ بكتابة القرآن وتدوينه وجمعه بين دفّتين. و«الصَّحيفَةُ: المبسوط من الشيء؛ كصحيفة الوجه، والصَّحيفَةُ: التي يكتب فيها، وجمعها: صَحَائفُ وصُحُفٌ. قال تعالى: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[5]، ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾[6]، قيل: أُريد بها القرآن، وجعله صحفاً فيها كتب من أجل تضمّنه لزيادة ما في كتب الله المتقدّمة. والْمُصْحَفُ: ما جعل جامعاً للصُّحُف المكتوبة، وجمعه: مَصَاحفُ»[7].

وتجدر الإشارة إلى أنّ الأسماء الثلاثة: الكتاب، الذِّكر، الفرقان، هي أسماء مشتركة بين القرآن والكتب السماوية الأخرى. وأمّا اسم «القرآن» فهو الاسم الوحيد الذي اختصّ به كتاب رسالة الإسلام عن كتب باقي الرسالات السماوية. ويُعدّ من أشهر أسماء القرآن: القرآن، ثمّ الفرقان، ثمّ يأتي بعدهما في الشهرة ترتيباً: الكتاب، والذِّكر، والتنزيل[8].

أوصاف القرآن

ذكر الباحثون والمفسّرون عدّة صفات للقرآن الكريم، وتفاوتت تحديداتهم في هذا الصدد؛ تبعاً لاختلاف معاييرهم وأذواقهم في تحديد أسماء القرآن وتمييزها عن صفاته،

(1) سورة الشعراء، الآية 192.
(2) سورة فصّلت، الآية 2.
(3) سورة يس، الآية 5.
(4) انظر: الراغب، مفردات ألفاظ القرآن، ص 799، مادّة«نزل».
(5) سورة الأعلى، الآية 19.
(6) سورة البينة، الآيتان 2 و 3.
(7) الراغب، مفردات ألفاظ القرآن، ص 476، مادّة«صحف».
(8) انظر: الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج1، ص17.

وأبـرز هذه الصفات التـي اقترنت بأسماء القـرآن المشهورة -التي تقـدّم ذكرها- وجاءت وصفاً لها:

أ. **الحكيم**: أي مستقرّ الحكمة. قال تعالى: ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[1].

ب. **العزيـز**: أي عديـم النظيـر، والمنيع، والممتنع مـن أن يُغلَب. قـال تعالى: ﴿... وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴾[2].

ج. **العظيـم**: أي الكبيـر والقـوي. قـال تعالـى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾[3].

د. **العربـي**: أي النـازل بلغـة العـرب. قـال تعالـى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[4].

هـ. وغيرهـا صفات أخـرى، من قبيـل: البشيـر[5]، والشافـي[6]، والقيِّـم[7]، والكريم[8]، والمبـارك[9]، والمبين[10]، والمتشابه[11]، والمثانـي[12]، والمجيد[13]، والنذير[14]، وذو الذّكر[15]، وغير ذي عوج[16]...

---

(1) سورة يس، الآية 2.
(2) سورة فصّلت، الآية 41.
(3) سورة الحجر، الآية 87.
(4) سورة يوسف، الآية 2.
(5) قال تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (سورة فصّلت، الآية 2).
(6) قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ...﴾ (سورة الإسراء، الآية 82).
(7) قـال تعالـى: ﴿...أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ...﴾ (سورة الكهف، الآيتان 1و2).
(8) قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ (سورة الواقعة، الآية 77).
(9) قال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ (سورة الأنبياء، الآية 50).
(10) قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ (سورة الحج، الآية 16).
(11) قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ...﴾ (سورة الزمر، الآية 23).
(12) قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ﴾ (سورة الزمر، الآية 23).
(13) قال تعالى: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ (سورة ق، الآية 1).
(14) قال تعالى: ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (سورة فصلت، الآية 2).
(15) قال تعالى: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾ (سورة ص، الآية 1).
(16) قال تعالى: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (سورة الزمر، الآية 28).

لغة القرآن

إنّ لغة القرآن هي اللغة العربية، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بعدّة تعابير، من قبيل: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾[1]، و﴿لِّسَانٌ عَرَبِيٌّ﴾[2] أو ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾[3]، و﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾[4].

وأمّا اختيار اللغة العربية لتكون لغة القرآن الكريم؛ فيعود إلى نكات دقيقة، أبرزها التالي:

أ. جاء نزول القرآن باللغة العربية استناداً إلى أصل عامّ وسنّة إلهية في الإنذار والتبشير، مفادها: اتّحاد لغة كلّ رسول مع لغة قومه. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ...﴾[5]. وهذه القاعدة العامّة في إرسال الرسل، تنطبق أيضاً على إنزال الكتب السماوية. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ...﴾[6]. ومن هذا المنطلق، فإنّ نزول القرآن باللغة العربية أمر طبيعي موافق للسنّة الإلهية في الإنذار والتبشير. وهذا لا يتنافى مع رسالة الإسلام العالمية، ودعوته العامّة على مدى العصور والأجيال، ولا مع ما جاء به القرآن من هداية عامّة لكافّة الناس، بقوله تعالى: ﴿...هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ...﴾[7]. وأمّا إنذار الرسول الأكرم ﷺ لأهل مكة، الذي ورد في سورة الشورى، فلم يكن إلا لأنّه ﷺ كان في المراحل الأولى من حركته العالمية، مكلّفاً بدعوة قومه وهداية أبناء بيئته. ومن غير المعقول أن يُؤمَر ﷺ بإرشاد الناس وهدايتهم، ثمّ يعرض عليهم كتاباً بلغة غريبة عنهم.

ب. يرى علماء اللغة أنّ اللغة العربية تمتاز عن اللغات الأخرى بأنّها واسعة جدّاً، ولها قدرة عالية على حكاية المفاهيم المعنوية العالية والسامية التي يطرحها القرآن، أكثر من غيرها من اللغات الأخرى. تتميّز اللغة العربية عن اللغات الأخرى بكثرة المفردات، واشتقاق الكلمات، ووفرة قواعدها، وفصاحتها، وبلاغتها...

---

(1) سورة يوسف، الآية 5؛ طه، الآية 113؛ الزمر، الآية 28؛ فصّلت، الآية 3؛ الشورى، الآية 7؛ الزخرف، الآية 3.
(2) سورة النمل، الآية 103.
(3) سورة الأحقاف، الآية 12.
(4) سورة الرعد، الآية 37.
(5) سورة إبراهيم، الآية 4.
(6) سورة الشورى، الآية 7.
(7) سورة البقرة، الآية 185.

وقد اختار الله تعالى اللغة العربية لتكون لغة للقرآن الكريم، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[2].

وهاتان الآيتان تكشفان عن حقيقة أنّ إكساء القرآن باللغة العربية مُسنَد إلى الله تعالى، وهو الذي أنزل معنى القرآن ومحتواه بقالب اللفظ العربي؛ ليكون قابلاً للتعقّل والتأمّل.

وفي الآية الواردة في سورة الزخرف يقول تعالى - بعد بيان أنّ لغة القرآن هي العربية-: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. وفي ذلك دلالة ما على أنّ لألفاظ الكتاب العزيز من جهة تعيّنها؛ بالاستناد إلى الوحي، وكونها عربية؛ دخلاً في ضبط أسرار الآيات وحقائق المعارف. ولو أنّه تعالى أوحى إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمعناه، وكان اللفظ الحالي له هو لفظ النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ كما في الأحاديث القدسية -مثلاً-، أو تُرجِم إلى لغة أخرى؛ لخفي بعض أسرار آياته البيّنات عن عقول الناس ولم تنله عقولهم وأفهامهم[3].

ج. أكّد القرآن الكريم على صفة كونه بلسان عربي في وجه مَنْ زعموا أنّ هناك شخصاً يُعلِّم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم القرآن: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[4]. ويُراد بـ ﴿أَعْجَمِىٌّ﴾: أنّه غير صحيح، فـ«الإعجام: الإبهام. والعجم خلاف العرب، والعجمي منسوب إليهم. والأعجم: مَنْ في لسانه عجمة، عربياً كان، أم غير عربي»[5].

وورد في حديث جاء جواباً عن معنى ﴿لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾: «**يبيّنُ الألسُنَ، ولا تُبيّنهُ الألسُنُ**»[6].

ومن هنا، فالمراد بالعربية هو: بيان حقيقة أنّ اللغة العربية لغة الفصاحة والوضوح والخلو من التعقيد والإبهام، في مقابل الأعجمي المبهم وغير الواضح والمعقّد، وقد اختارها الله تعالى ليُبيّن بها معارف وحقائق راقية؛ بلغة فصيحة وبليغة.

---

(1) سورة يوسف، الآية 2.

(2) سورة الزخرف، الآية 3.

(3) انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج11، ص75.

(4) سورة النحل، الآية 103.

(5) انظر: الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص 549، مادّة «عجم».

(6) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص 632.

المفاهيم الرئيسة

- تعـدّدت الأقوال في تحديد معنى القرآن وأصله الاشتقاقـي اللغوي. وأقواها وأصوبها أنّه: اسم مهموز مصدر لقرأتُ؛ بمعنى التلاوة، سُمّي به الكتاب المقروء.
- أبرز أسماء القرآن: القرآن، الفرقان، الذِّكر، الكتاب، التنزيل، المصحف.
- حقيقة القرآن هي حقيقة إلهية تنطوي على أعمق المعارف المعنوية. وقد قضى الله تعالى أن يُلبِسَ هذه الحقيقة لباس الألفاظ؛ ليتسنّى للناس فهم القرآن.
- مـن أوصاف القـرآن الكريم: البشيـر، الحكيم، الشافي، العربـي، العزيز، العظيم، القيّم، الكريم...
- إنّ القرآن نزل بالعربية وذلك لأنّ العربية لغة الفصاحة والوضوح والخلو من التعقيد والإبهـام، في مقابل الأعجمي المبهم وغير الواضح والمعقّد، وقد اختارها الله تعالى ليُبيّن بها معارف وحقائق راقية؛ بلغة فصيحة وبليغة.

للمطالعة

قراءة القرآن والعمل به

وقد حذّرت الأحاديث الشّريفة بشدّة من قارئ القرآن الذي لا يعمل به ولا يُطبّقه على نفسه، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال في حديث: «**من تعلّم القرآن فلم يعمل به وآثر عليه حبّ الدُّنيا وزينتها استوجب سخط الله وكان في الدرجة مع اليهود والنصارى الذين ينبذون كتاب الله وراء ظهورهم، ومن قرأ القرآن وأراد به السمعة والوصول إلى الدُّنيا لقي الله ووجهه عظم لا لحم فيه وزجّه القرآن على قفاه حتّى يدخل النّار ويسقط في النّار مع الذين سقطوا، ومن قرأ القرآن ولم يعمل به حشره الله يوم القيامة أعمى فيقول ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾**[1] **فيؤمر به إلى النّار، ومن قرأ القرآن ابتغاء وجه الله وتفقّهاً في الدِّين كان له من الثواب مثل جميع ما يُعطى الملائكة والأنبياء والمرسلون، ومن تعلّم القرآن يريده رياء وسمعة ليُماري به السفهاء ويُباهي به العلماء ويطلب به الدُّنيا بدّد الله عزّ وجلّ عظامه يوم القيامة ولم يكن في النّار أشدّ عذاباً منه وليس نوع من أنواع العذاب إلا ويُعذّب من شدّة غضب الله عليه وسخطه، ومن تعلّم القرآن وتواضع في العلم وعلّم عباد الله يريد ما عند الله لم يكن في الجنّة أعظم ثواباً منه ولا أعظم منزلة منه ولم يكن في الجنّة منزلة ولا درجة رفيعة ولا نفيسة إلا كان له فيها أوفر النصيب وأشرف المنازل**»[2].

(1) سورة طه، الآيتان 125 و126.

(2) الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج6، ص183.

الدرس السابع

الوحي

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يعرف معنى الوحي في اللغة والقرآن.

2 . يُعدِّد أنحاء الوحي الرسالي.

3 . يتعرّف على أنحاء الوحي عند النبي محمّد ﷺ.

الوحي في اللّغة

الوحـي ـ في اللّغة ـ إعلام سريع خفيّ، سـواء أكان بإيماءَة أو هَمْسة أو كتابة في سرّ، وكلّ ما ألقيته إلى غيرك في سرعة خاطفة حتّى فهمه فهو وحي.

قال تعالى عن زكريا عليه السلام: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[1]. أي أشار إليهم على سبيل الرّمز والإيماء.

ولعلّ الخفاء في مفهوم الوحي جاء من قبل اعتبار السّرعة فيه، فالإيماءَة السريعة تخفى ـ طبعاً ـ على غير المومى إليه.

الوحي في القرآن

استعمله القرآن في معانٍ أربعة:

1. معناه اللّغوي وهو إعلام سريع خفي، وقد ذُكر في آية مريم.
2. تركيـز غريزي فطري، وهو تكوين طبيعيّ مجعول في جبلّة الأشياء، ومنْهُ قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾[2].

فهي تسلك وفق فطرتها وتستوحي من باطن غريزتها، مذلّلة لما أودع فيها من غريزة العمل المنتظم ومن ثَمّ فهي لا تعدل عن تلك السبيل.

3. إلهـام نفسي، وهو شعور في الباطن، يحسّ به الإنسـان إحساساً يخفى عليه مصدره أحياناً، وأحياناً يلهم أنّه من الله وقد يكون من غيره تعالى.

---

(1) سورة مريم، الآية 11.

(2) سورة النحل، الآيتان 68 و 69.

ومن الإلهام الرحمانـي قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[1].

والتعبير بالوحي عن وسواس الشيطان جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾[2].

والتعبير بالوحي عمّا يُلقيه الله إلى الملائكة من أمره ليفعلوه من فورهم جاء في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[3].

4. الوحـي الرسالـي، وهو معنى رابع استعمله القرآن في أكثر مـن سبعين موضعاً معبّراً عـن القـرآن أيضاً بأنّـه وحي أُلقي علـى النّبي ﷺ، قـال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾[4]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[5].

أنحاء الوحي الرسالي

الوحي الرسالي يتحقّق على أنحاء ثلاثة كما جاءت في الآية الكريمة:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[6].

فالصورة الأولى: إلقاء في القلب ونفث في الروع.

والثانيـة: تكليـم من وراء حجـاب بخلق الصوت في الهواء بما يقـرع مسامع النّبي[7] ولا يرى شخص المتكلّم.

---

(1) سورة القصص، الآية 7.
(2) سورة الأنعام، الآية 121.
(3) سورة الأنفال، الآية 12.
(4) سورة يوسف، الآية 3.
(5) سورة الشورى، الآية 7.
(6) سورة الشورى، الآية 51.
(7) لكن لا بهذه الأذن المادّيّة وإلّا لسمعه الآخرون أيضاً بل بذلك السمع الذي يخصّ باطنه، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ (سورة البقرة، الآية 97).

والثالثة: إرسال ملك الوحي فيبلّغه إلى النّبي، إمّا عياناً، أو لا يراه ولكن يستمع إلى رسالته. إذن فالفارق بين الوحي الرسالي وسائر الإيحاءات المعروفة، هو جانب مصدره الغيبي اتّصالاً بما وراء المادّة.

ملحوظة:

بما أنّ الوحي ظاهرة روحيّة فإنّه بأيّ أقسامه إنّما كان مهبطه قلبه الشريف، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[1]، ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾[2]، والقلب هو لبّ الشيء وحقيقته الأصليّة.

قال السيّد الطباطبائي قدس سره: «**هذا إشارة إلى كيفيّة تلقّيه صلى الله عليه وآله وسلم القرآن النازل عليه وأنّ الذي كان يتلقّاه من الرّوح هي نفسه الكريمة من غير مشاركة الحواسّ الظاهرة التي هي أدوات لإدراكات جزئيّة خارجيّة... فكان صلى الله عليه وآله وسلم يرى شخص الملك ويسمع صوت الوحي، لكن لا بهذه السمع والبصر المادّيتين وإلّا لكان أمراً مشتركاً بينه وبين غيره، ولم يكن يسمع أو يبصر هو دون غيره. فكان يأخذه بَرْحاء الوحي وهو بين الناس فيوحى إليه ولا يشعر الآخرون الحاضرون...**»[3].

اللّهم سوى ما ورد بشأن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام، كان يرى ما يراه النّبي صلى الله عليه وآله وسلم ويسمع ما يسمعه إلّا أنّه ليس بنبيّ، وورد في بعض الروايات أنّ عليّاً عليه السلام كان يسمع ولا يرى. كما قال له الرسول صلى الله عليه وآله وسلم[4].

أنحاء الوحي بالنسبة إلى نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم

هذه أنحاء الوحي بصورة إجمالية. أمّا بالنسبة إلى نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم فكان يأتيه الوحي تارة في المنام، وهذا ـ أكثرياً ـ كان في بدء نبوّته. وأخرى وحيّاً مباشريّاً من جانب الله، بلا توسيط ملك. وثالثة مع توسيط جبرئيل عليه السلام. وإليك بعض التفصيل:

---

(1) سورة البقرة، الآية 97.

(2) سورة الشعراء، الآيتان 193 و 194.

(3) السيد الطباطبائي، تفسير الميزان، ج 15، ص 346. بَرْحاء الوحي: شدّة ألمه والإحساس بكَرْبه.

(4) الشريف الرضي، خطب الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، الخطبة القاصعة 192، صبحي الصالح.

1. الرؤيا الصادقة

كان أوّل ما بدىء به من الوحي الرؤيا الصادقة، كان ﷺ لا يرى رؤيا إلّا جاءت مثل فلق الصبح.

رُوي عن الإمام الباقر عليه السلام: «**وأمّا النّبي فهو الذي يرى في منامه، نحو رؤيا إبراهيم عليه السلام ونحو ما كان رأى رسول الله ﷺ من أسباب النبوّة قبل الوحي، حتّى أتاه جبرائيل عليه السلام من عند الله بالرّسالة...**»[1].

قوله: «**قبل الوحي**» أي قبل الوحي الرّسالي المأمور بتبليغه. لأنّ هذا البيان تفسير لمفهوم «**النّبي**» قبل أن يكون رسولاً، وهو إنسان أوحي إليه من غير أن يكون مأموراً بتبليغه. فهو يتّصل بالملأ الأعلى اتّصالاً روحيّاً، وينكشف له الملكوت كما حصل لنبيّنا ﷺ قبيل بعثته المباركة.

ولكن لم يعهد نزول قرآن عليه في المنام، نعم ربّما كانت بعض رؤاه أسباباً لنزول القرآن كما في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ...﴾[2].

فقد رأى النبيّ ﷺ ذلك عام الحديبية (سنة الست من الهجرة) وصدقت عام الفتح (سنة الثمان من الهجرة).

2. نزول جبرائيل

كان الملك الذي ينزل على النبي ﷺ بالوحي هو جبرائيل عليه السلام، فكان يُلقيه على مسامعه الشريفة، فتارة يراه، إمّا في صورته الأصليّة أو في صورة أخرى. وهذا حصل مرّتين.

والمرّتان كانت إحداهما في بدء الوحي بحراء. ظهر له جبرائيل في صورته الأصليّة التي خلقه الله عليها، مالئاً أُفق السماء من المشرق والمغرب، فتهيّبه النبي ﷺ تهيّباً بالغاً، فنزل عليه جبرائيل في صورة الآدميّين فضمّه إلى صدره، فكان لا ينزل عليه بعد ذلك إلّا في صورة بشر جميل.

---

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج 1، ص 176، ح 3. العلامة المجلسي، وبحار الأنوار: ج 18، ص 266، ح 27.

(2) سورة الفتح، الآية 27.

والثانيـة كانـت باستدعائه ﷺ أن يريه نفسه مرّة أخرى علـى صورته التي خلقه الله، فأراه صورته فسدّ الأفق فقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[1] كانت المرّة الأولى، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾[2] كانت المرّة الثانية، على ما جاءت في الروايات[3].

ثمّ إنّ جبرائيل عليه السلام إذا أتى النبي ﷺ لم يدخل حتّى يستأذنه وإذا دخل عليه قعد بين يديه قعدة العبد كما جاء في رواية الإمام الصادق عليه السلام[4].

أمّـا نزول الملك عليـه بالوحي من غير أن يراه فكثير أيضاً، إمّـا إلقاءً على مسامعه وهو يصغي إليه أو إلهاماً في قلبه فيعيه بقوّة.

3. ولعـلّ أكثريـة الوحي كان مباشريّاً لا يتوسّطه ملك، على مـا جاء في وصف الصّحابة حالته ﷺ، ساعةَ نزول الوحي عليه.

قـال الشيـخُ الصدوقُ: «إنّ النبي ﷺ كان يكـونُ بينَ أصحابه فيُغْمى عليـه وهو يَتَصابُّ عَرَقـاً فإذا أفاق قال: قال الله كذا وكذا وأمَرَكُم بكذا ونَهاكم عن كذا. قال: وكان يَزْعَمُ أكثرُ مخالفينـا أنّ ذلـك كان عند نزول جبرائيلَ، فسُئِل الإمـام الصادق عليه السلام عن الغشية التي كانـت تأخذ النبي ﷺ أكانت عند هبـوط جبرائيل عليه السلام؟ فقال: «**لا. إنّ جبرائيل كان إذا أتـى النبي ﷺ لم يدخل حتّى يسـتأذنه، وإذا دخل عليه قعـد بين يديه قعدة العبد. وإنّما ذاك عند مخاطبة الله عزّ وجلّ إيّاه بغير ترجمانٍ وواسطة**»[5].

(1) سورة النجم، الآية 7.
(2) سورة النجم، الآية 13.
(3) الطبرسي، مجمع البيان: ج 9، ص173 و 175 وج 10، ص 446، وتفسير الصافي، ج 2، ص 618.
(4) الشيخ الصدوق، كمال الدين، ص 85.
(5) م.ن، ص 85، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 18، ص260.

المفاهيم الرئيسة

- الوحي ـ في اللّغة ـ إعلام سريع خفيّ، سواء أكان بإيماءَة أو هَمْسة أو كتابة في سرّ
- استعمل القرآن الوحي في معانٍ أربعة:

1. معناه اللّغوي وهو إعلام سريع خفي، وقد ذُكر في آية مريم.
2. تركيز غريزي فطري.
3. إلهام نفسي.
4. الوحي الرسالي.

- الوحي الرسالي يتحقّق على أنحاء ثلاثة كما جاءت في الآية الكريمة:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.

فالصورة الأولى: إلقاء في القلب ونفث في الروع.

والثانية: تكليم من وراء حجاب بخلق الصوت في الهواء بما يقرع مسامع النّبي ولا يرى شخص المتكلّم.

والثالثة: إرسال ملك الوحي فيبلّغه إلى النّبي.

- النبي محمّد صلى الله عليه وآله وسلم كان يأتيه الوحي تارة في المنام، وهذا ـ أكثرياً ـ كان في بدء نبوّته. وأخرى وحياً مباشريّاً من جانب الله، بلا توسيط ملك. وثالثة مع توسيط جبرئيل عليه السلام.

للمطالعة

التفكّر في آيات الله

مـن آداب قـراءة القـرآن المهمَّة؛ التفكُّـر. والمقصود مـن التفكُّر أن يبحـث في الآيات الشّريفـة عن المقصد والمقصود من كلّ آية. وأحسن التعبير فيه ما قاله الخواجة عبد الله الأنصـاري حيث عرّف التفكُّر بأنّـه: «تلمّس البصيرة لاستدراك البغيـة»[1]، يعني أنَّ التفكُّر هـو التجسّـس والبحث بواسطة نور البصيرة[2] للوصول إلـى المقصد والمقصود من كلّ آية شريفـة. ومن المعلوم أنّ المقصد الأساس من وراء القرآن ومن وراء كلّ آية فيه هو الوصول إلى السَّعادة المطلقة التي تحصل بالكمال العلمي والعملي.

الهدف من التفكُّر

مـن مقاصد القـرآن الكريم كمـا تُبيِّنُ هـذه الصَّحيفـة النُّورانية هو الهدايـة إلى سبل السَّلام والخروج من جميع مراتب الظلمات إلى عالم النور، والهداية إلى الطريق المستقيم: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3]، وتحصيل هذه الهداية ومراتب السَّلامة تبدأ من المرتبة الدَّانية الرَّاجعة إلى قوى الإنسان الحسّية إلى منتهى النهاية، وهي الوصول إلى مقام القلـب السليم، الـذي على ما ورد ذكره عن أهل البيـت عليهم السلام أنّ حقيقته أن يُلاقيَ الإنسان الحقّ وليس في قلبه غيره عزّ وجلّ[4]. وتحصيل هذه الهداية غير ممكن إلا من خلال التفكُّر. فتكـون سلامة القـوى الحسّية والمعنويّة ضالة قارئ القـرآن، فإنّها موجودة في هذا الكتاب السمـاوي ولا بدّ أن يستخرجها بالتفكُّر. وإذا صـارت قوى الإنسان الحسّية والمعنويّة سالمة مـن التصـرّف الشّيطاني وسلك طرق السلامـة وعمل بها، فإنَّه فـي كلّ مرتبة من السلامة

(1) عبد الله الأنصاري، منازل السائرين، مؤسسة دار العلم، مطبعة القدس – قم، ط 1، 1417هـ، باب التفكُّر.

(2) وهي بصر القلب لا بصر العين.

(3) سورة المائدة، الآيتان 15 و 16.

(4) عـن أبـي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قول الله عـزّ وجلّ: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (سورة الشعـراء، الآية 89) قال: «**القلب السليم الذي يلقى ربه وليس فيه أحد سواه**». العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج67، ص 239.

تحصل له ينجو من الظلمة ويتجلّى فيه النور الإلهيّ الساطع قهراً، حتّى إذا خلص من جميع أنواع الظلمات التي أوّلها ظلمات عالم الطّبيعة بجميع شؤونها وآخرها ظلمة التوجّه إلى غير الحـقّ عزّ وجلّ، يتجلّى النور المطلق فـي قلبه ويهديه إلى طريق الإنسانية المستقيم وهو في هذا المقام طريق الربّ: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

(1) سورة هود، الآية 56.

الدرس الثامن

تاريخ القرآن

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يفهم معنى النزول ويُعدّد الأقوال فيه.

2 . يعرف أوّل وآخر ما نزل من القرآن.

3 . يشرح الفروق بين المكّي والمدني.

مقدمة

هناك مسألة ذات أهميّة تمسّ جانب نزول الوحي قرآناً، وارتباطه مع بدء الرسالة، حيث اقترنت البعثة ـ وكانت في شهر رجب ـ بنزول شيء من القرآن (خمس آيات من أوّل سورة العلق) في حين تصريح القرآن بنزوله في ليلة القدر من شهر رمضان فما وجه التوفيق؟

وهكذا تعيين المدّة التي نزل القرآن خلالها تدريجاً، والسور التي نزلت قبل الهجرة لتكون مكّيّة ـ اصطلاحاً ـ والتي نزلت بعدها لتكون مدنيّة.

معنى النزول

النون والزاء واللام كلمة صحيحة تدلّ على هبوط شيء ووقوعه... والتنزيل ترتيب الشيء ووضعه منزله[1]. والفَرْقُ بَيْنَ الإنْزَال والتَّنْزِيل في وَصْف القُرآن والملائكة: أنّ التَّنْزِيل يختصّ بالموضع الذي يُشيرُ إليه إنزالُه مفرَّقاً، ومرَّةً بعد أُخْرَى، والإنزالُ عَامٌّ، فممَّا ذُكِرَ فيه التَّنزيلُ قولُه: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ ...﴾[2] ... وممّا ذُكِرَ فيه الإنزال وأُريد به الدفعة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾[3] [4].

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ص 417.، ج5، مادّة «نزل».

(2) سورة الشعراء، الآيتان 193 و 194.

(3) سورة القدر، الآية 1.

(4) الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص 799 – 800، مادّة «نزل».

الأقوال في نزول القرآن

ذُكِرَ في نزول القرآن عدّة أقوال[1]، أبرزها:

أ. **القول الأوّل**: وهو قول المشهور من العلماء والمفسّرين، ومفاده: أنّ القرآن نزل إلى السماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة، ثمّ نزل بعد ذلك منجّماً مدّة إقامة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمكة بعد البعثة، فعَن ابْن عَبَّاس أنّه قَالَ: «أُنْزِلَ الْقُرْآنُ فِي لَيْلَة الْقَدْرِ جُمْلَةً وَاحِدَةً إِلَى السَمَاءِ الدُّنْيَا وَكَانَ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَكَانَ اللّه يُنَزِّلُهُ عَلَى رَسُولِ اللّه صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْضُهُ فِي إِثْرِ بَعْضٍ»[2].

وقد تعرّضت مجموعة من الروايات لنزول القرآن إلى السماء الدنيا، فأشار بعضها لنزول القرآن إلى السماء الرابعة، وبعضها الآخر لنزوله إلى البيت المعمور أو إلى بيت العزّة وهو في السماء الرابعة. ولكنّها لم توضّح حقيقة المراد من السماء الدنيا أو السماء الرابعة أو البيت المعمور أو بيت العزّة[3].

ب. **القول الثاني**: نزل إلى السماء الدنيا في ليلة القدر ما قدَّر الله إنزاله في هذه السنة، ثمّ نزل بعد ذلك منجّماً طيلة السنة. وهكذا كلّ سنة حتى رحيله صلى الله عليه وآله وسلم.

ج. **القول الثالث**: ابتدأ إنزاله في ليلة القدر، ثمّ نزل بعد ذلك منجّماً في أوقات مختلفة حتى رحيله صلى الله عليه وآله وسلم.

د. **القول الرابع**: أنّه نزل من اللوح المحفوظ جملة واحدة، وأنّ الحفظة نجّمته على جبريل في عشرين ليلة، وأنّ جبريل نجّمه على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في عشرين سنة، فعن ابْن عَبَّاس قَالَ: «نَزَلَ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً مِنْ عِنْد اللّه مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَى السَّفَرَة الْكِرَام الْكَاتِبِينَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَنَجَّمَتْهُ السَّفَرَةُ عَلَى جِبْرِيلَ عِشْرِينَ لَيْلَةً، وَنَجَّمَهُ جِبْرِيلُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِشْرِينَ سَنَةً»[4].

---

(1) الأقوال الأربعة الأولى ذكرها السيوطي في كتابه الإتقان. انظر: السيوطي، الإتقان، ج1، ص146-149. والقول الرابع ذكره العلامة الطباطبائي قدس سره في تفسيره الميزان. انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج2، ص15-18.

(2) النيسابوري، أبو عبدالله: المستدرك على الصحيحين، ج 2، ص 530، إشراف يوسف عبد الرحمن المرعشلي، لاط، لام، لان، لات، ج2، تفسير سورة إنّا أنزلناه.

(3) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص628-629؛ النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ج2، ص222.

(4) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج1، ص119.

هـ. **القول الخامس:** التفريق بين الإنزال والتنزيل: وهو ما ذهب إليه العلّامة الطباطبائي قدس سره، حيث أفاد: «أنّ الإنزال دفعي والتنزيل تدريجي... فقوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾[1]، ظاهر في نزوله تدريجاً في مجموع مدّة الدعوة؛ وهي ثلاث وعشرون سنة تقريباً، والمتواتر من التاريخ يدلّ على ذلك، ولذلك ربما استشكل عليه بالتنافي «مع آيات أخرى يستفاد من مجموعها نزول القرآن في ليلة القدر». والذي يُعطيه التدبّر في آيات الكتاب...: أنّ الآيات الناطقة بنزول القرآن في شهر رمضان أو في ليلة منه إنّما عبّرت عن ذلك بلفظ الإنزال الدالّ على الدفعة دون التنزيل؛ كقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ...﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ...﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾[4] ... وبالجملة، فإنّ المتدبّر في الآيات القرآنية لا يجد مناصاً عن الاعتراف بدلالتها على كون هذا القرآن المنزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم تدريجاً متّكئاً على حقيقة متعالية عن أن تُدركها أبصار عقول العامّة أو تتناولها أيدي الأفكار المتلوّثة بألواث الهوسات وقذارات المادّة، وأنّ تلك الحقيقة أُنزلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنزالاً، فعلّمه الله بذلك حقيقة ما عناه بكتابه[5].

فوائد النزول التدريجي

إنّ نزول القرآن منجّماً طيلة مدّة البعثة النبوية الشريفة يحمل في طيّاته فوائد وآثاراً بالغة الأهمّيّة؛ ما كانت لتترتّب لو نزل دفعة واحدة فقط. ومن هذه الفوائد والآثار:

أ. ردّ القرآن على اعتراض الكفّار على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾[6].

---

(1) سورة الإسراء، الآية 106.
(2) سورة البقرة، الآية 185.
(3) سورة الدخان، الآية 3.
(4) سورة القدر، الآية 1.
(5) السيّد الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج2، ص15-18.
(6) سورة الفرقان، الآية 32.

ب. في النزول التدريجي تثبيت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ومواساة لقلبه الشريف، وكذلك للمؤمنين من باب أولى، قال تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[1].

ج. إنّ نـزول المعارف الدينية بشكل تدريجـي تُتيح للناس أن يُنظّموا شؤون حياتهم الفردية والاجتماعية وفقاً له، ويصلوا من خلال ذلك إلى مرحلة الكمال. وهذا من أفضل أساليب التعليم والتربية، قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾[2].

د. أتاح النزول التدريجي الفرصة للصحابة لكي يحفظوا آياته بسهولة. وهذا ما أدّى إلى المساهمـة في تفويت الفرصة على أعداء الدِّين الذيـن أعدّوا العدّة لتحريف القرآن وإطفاء نور الهداية الإلهية.

أوّل ما نزل من القرآن

ما هي أوّل آية أو سورة نزلت من القرآن؟

فـإن كانت هي سـورة العلق أو أيّاً منها فلم سُمّيت سورة الحمـد بفاتحة الكتاب؟ إذ ليس المعنى أنّها كُتبت في بدء المصاحف لأنّ هذا الترتيب شيء حصل بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو لا أقـلّ في عهد متأخّر من حياته ـ فرضاً ـ في حيـن أنّها كانت تُسمّى بفاتحة الكتاب منذ بداية نزولها كما يشير إليه قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**لا صلاة إلّا بفاتحة الكتاب**»[3].

والأقوال في ذلك ثلاثة:

1. سورة العلق

فـي تفسير الإمام عليه السلام: «**هبط إليه جبرائيل وأخذ بضبعه وهزّه، فقال: يا محمّد! اقـرأ، قال: وما أقرأ؟ قال: يا محمّد!** ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[4]»[5].

---

(1) سورة يس، الآية 76.

(2) سورة الإسراء، الآية 106.

(3) ابن أبي جمهور الأحسائي، عوالي اللئالي، تحقيق آقا مجتبى العراقي، مطبعة سيد الشهداء – قم، ط 1، 1983م.

(4) سورة العلق، الآيات 1 – 5.

(5) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 18، ص 206.

2. سورة المدَّثِّر

روي عن ابن سلمة، قال: سألت جابر بن عبد الله الأنصاري: أيّ القرآن أُنزل قبل؟ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١﴾. قلتُ: أو ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾؟ أحدِّثكم ما حدَّثنا به رسول الله ﷺ: «**إنّي جاورت بحراء، فلّما قضيت جواري نزلت فاستبطت الوادي، فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وشمالي. ولعلّه سمع هاتفاً. ثمّ نظرتُ إلى السماء فإذا هو. يعني جبرائيل. فأخذتني رجفة، فأتيت خديجة، فأمرتهم فدثّروني، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾**»[1][2].

ولعلّ جابراً اجتهد من نفسه أنّها أوّل سورة نزلت، إذ ليس في كلام رسول الله ﷺ دلالة على ذلك والأرجح أنّ ما ذكره جابر كان بعد فترة انقطاع الوحي فظنّه جابر بدء الوحي[3].

حيث روى جابر حديث فترة انقطاع الوحي أيضاً: قال: سمعت رسول الله ﷺ يُحدّث عن فترة انقطاع الوحي، قال: «**فبينما أنا أمشي إذ سمعت هاتفاً من السماء، فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالساً على كرسيّ بين السماء والأرض، فجئت منه فرقاً. أي فزعت. فرجعت. فقلت: زمِّلوني زمِّلوني فدثّروني، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾**[4]. **وهي الأوثان. قال ﷺ: ثمّ تتابع الوحي**»[5].

3. سورة الفاتحة

قال الزمخشري: أكثر المفسّرين على أنّ الفاتحة أوّل ما نزل[6].

وروي عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنّه قال: «**سألت النبي ﷺ عن ثواب القرآن، فأخبرني بثواب سورة سورة على نحو ما نزلت من السماء فأوّل ما نزل عليه بمكّة: فاتحة الكتاب، ثم: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾، ثم: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١﴾**»[7].

---

(1) سورة المدثر، الآيتان 1 و 2.

(2) محمد بن مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، ج 1، ص 99، نشر دار الفكر – لبنان، باب الإسراء برسول الله ﷺ.

(3) الزركشي، البرهان، ج 1، ص 206، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط 1، 1957م.

(4) سورة المدثر، الآيات 1 – 5.

(5) صحيح مسلم، ج 1، ص 98.

(6) الزمخشري، الكشاف، ج 4، ص 775، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1966م.

(7) الطبرسي، مجمع البيان، ج 10، ص 405.

ولا شكّ أنّ النبي ﷺ كان يُصلّي منذ بعثته، وكان يُصلّي معه عليّ وجعفر وزيد بن حارثة وخديجة[1] فقد ورد في الأثر: أوّل ما بدأ به جبرائيل أن علّمه الوضوء والصلاة[2]، فلا بدّ أنّ سورة الفاتحة كانت مقرونة بالبعثة.

وبعد... فلا نرى تنافياً جوهريّاً بين الأقوال الثلاثة نظراً لأنّ الآيات الثلاث أو الخمس من أوّل سورة العلق إنّما نزلت تبشيراً بنبوّته ﷺ وهذا إجماع أهل الملّة. ثمّ بعد فترة جاءته آيات - أيضاً - من أوّل سورة المدّثّر كما جاء في حديث جابر ثانياً.

أمّا سورة الفاتحة فهي أوّل سورة نزلت بصورة كاملة وبسمة كونها سورة من القرآن كتاباً سماويّاً للمسلمين.

ومن هنا صحّ التعبير عن سورة الحمد بسورة الفاتحة أي أوّل سورة كاملة نزلت بهذه السمة الخاصّة.

آخر ما نزل من القرآن

هناك أقوال:

1. سورة النصر

روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**وآخر سورة نزلت:** ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾[3]»[4].

2. سورة براءة

روي أنّها آخر سورة نزلت. نزلت في السنة التاسعة بعد عام الفتح عند مرجعه ﷺ من غزوة تبوك، نزلت آيات من أوّلها فبعث بها النبي مع عليّ عليه السلام ليقرأها على ملأ من المشركين[5].

3. روي أنّ آخر آية نزلت هي آية: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ

(1) القمي علي بن إبراهيم، تفسير علي بن إبراهيم القمي، ص 353.
(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 18، ص 184، ح 14 وص 194، ح 30.
(3) سورة النصر، الآية 1.
(4) السيد هاشم البحراني، تفسير البرهان، ج 1، ص 29.
(5) م.ن، ج 1، ص 680.

﴿مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[1] نـزل بهـا جبرائيـل، وقـال: ضعها في رأس المأتين والثمانيـن من سورة البقـرة، وعاش الرسول ﷺ أحداً وعشريـن يوماً، وقيل: سبعة أيام[2].

4. روي أنّ آخـر آيـة نزلـت هـي آيـة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[3].

قال اليعقوبي: كان نزولها يوم النّص على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بغدير خم[4].

الجمع بين الأقوال:

لا شـكّ أنّ سـورة النّصر نزلت قبل براءة لأنّها كانت بشـارة بالفتح أو بمكّة عام الفتح[5] وبراءة نزلت بعد الفتح بسنة.

فطريق الجمع بين هذه الروايات: أنّ آخر سورة نزلت كاملة هي سورة النّصر، فقال ﷺ: أما إنّ نفسي نعيت إليّ. وآخر سورة نزلت باعتبار مفتتحها هي سورة براءة. وأمّا آية ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ...﴾ فـإن صحّ أنّها نزلت بمنى يوم النحر في حجّة الوداع. كما جاء فـي رواية الماوردي[6]. فآخر آية نزلت هي آية الإكمال. كما ذكرها اليعقوبي. لأنّها نزلت في مرجعـه ﷺ من حجّة الوداع فـي الثامن عشر من ذى الحجّة. وإلّا فلـو صحّ أنّ النبي ﷺ عاش بعد آية: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ...﴾ أحداً وعشرين يوماً أو سبعة أيّام، فهذه هي آخر آية نزلت عليه ﷺ.

والأرجـح مـا ذهب إليـه اليعقوبي، نظـراً لأنّها آية الإعـلام بكمال الدِّيـن، فكانت إنذراً بانتهـاء الوحي عليه ﷺ بالبلاغ والأداء. فلعلّ تلك الآية كانت آخر آيات الأحكام، وهذه آخر آيات الوحي إطلاقاً.

---

(1) سورة البقرة، الآية 281.
(2) السيد عبدالله شبّر، تفسير شبّر، ص 83.
(3) سورة المائدة، الآية 3.
(4) أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 35.
(5) أسباب النزول بهامش الجلالين، ج 2، ص 165.
(6) الزركشي، البرهان، ج 1، ص 187.

المكّي والمدني

لمعرفة المكّي والمدنيّ فائدة كبيرة تمسّ جوانب أسباب النزول وتمدّ المفسّر والفقيه في تعيين اتّجاه الآية وفي مجال معرفة الناسخ من المنسوخ، والخاصّ من العامّ، والقيد من الإطلاق، وما أشبه، وفي تعيين المكّي والمدنيّ ثلاث نظريات:

الأولى: ما نزل قبل الهجرة أو في أثناء الطريق قبل وصوله إلى المدينة فهو مكّي وما نزل بعد ذلك ولو في غير المدينة حتى ولو نزل في مكّة عام الفتح أو في حجة الوداع فهو مدنيّ.

الثانية: ما نزل بمكّة وحواليها ـ ولو بعد الهجرة ـ فهو مكّي، وما نزل بالمدينة وحواليها فهو مدنيّ وما نزل خارجاً عنهما فهو لا مكّي ولا مدنيّ.

الثالثة: كلّ شيء نزل فيها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ فهو بمكّة وكلّ شيء نزل فيه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فهو بالمدينة[1].

قال الزركشي: لأنّ الغالب على أهل مكّة الكفر، والغالب على أهل المدينة الإيمان[2].

والمشهور الذي جرى عليه أكثرية أهل القلم هو الاصطلاح الأوّل[3]. وكان التحديد الآتي في نظم السور حسب ترتيب نزولها معتمداً على هذا الاصطلاح.

ترتيب النّزول

اعتمدنا في هذا العرض على عدّة روايات متّفق عليها وثق بها العلماء أكثرياً وعمّدتها رواية ابن عباس بطرق وأسانيد اعترف بها أئمة الفن[4].

والنظر في هذا العرض كان إلى مفتتح السّور، فالسورة إذا نزلت من أوّلها بضع آيات، ثم نزلت أخرى، وبعدها اكتملت الأولى، كانت الأولى متقدّمة على الثانية في ترتيب النزول، حسب هذا الاصطلاح، لكن هذا التحديد لم يكن متفقاً عليه عند الجميع.

وقد وضعنا في صفحة المطالعة لهذا الدرس قائمة السّور المكّية، وعددها: ستّ وثمانون سورة، متقدمة على السّور المدنيّة، وعددها: ثمان وعشرون سورة، مع غضّ النظر عن السور المختلف فيها .

(1) الزركشي، البرهان، ج 1، ص 190.
(2) م.ن، ج 1، ص 187.
(3) راجع البرهان: ج 1، ص 187.
(4) الطبرسي، مجمع البيان، ج 10، ص 405 ـ 406.

المفاهيم الرئيسة

- التنزيل يدلّ على هبوط شيء ووقوعه... والتنزيل ترتيب الشيء ووضعه منزله.
- ذُكِرَ في نزول القرآن عدّة أقوال، أبرزها:

الأول: أنّ القرآن نزل إلى السماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة، ثمّ نزل بعد ذلك منجّماً مدّة إقامة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمكة بعد البعثة.

الثاني: أنّ القرآن نزل إلى السماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة، ثمّ نزل بعد ذلك منجّماً مدّة إقامة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمكة بعد البعثة.

الثالث: ابتدأ إنزاله في ليلة القدر، ثمّ نزل بعد ذلك منجّماً في أوقات مختلفة حتى رحيله صلى الله عليه وآله وسلم.

الرابع: أنّه نزل من اللوح المحفوظ جملة واحدة، وأنّ الحفظة نجّمته على جبريل في عشرين ليلة، وأنّ جبريل نجّمه على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في عشرين سنة.

الخامس: التفريق بين الإنزال والتنزيل: وهو ما ذهب إليه العلّامة الطباطبائي قدس سره، حيث أفاد: أنّ الإنزال دفعي والتنزيل تدريجي.

- وفي تعيين المكّي والمدنيّ ثلاث نظريات:

الأولى: ما نزل قبل الهجرة أو في أثناء الطريق قبل وصوله إلى المدينة فهو مكّي وما نزل بعد ذلك ولو في غير المدينة.

الثانية: ما نزل بمكّة وحواليها ـ ولو بعد الهجرة ـ فهو مكّي، وما نزل بالمدينة وحواليها فهو مدنيّ وما نزل خارجاً عنهما فهو لا مكّي ولا مدنيّ.

الثالثة: كلّ شيء نزل فيها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ فهو بمكّة وكلّ شيء نزل فيه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فهو بالمدينة.

للمطالعة

ترتيب النزول	السورة	ترتيب المصحف
1	العلق	96
2	القلم	68
3	المزّمّل	73
4	المدَّثّر	74
5	الفاتحة [1]	1
6	المسد	111
7	التكوير	81
8	الأعلى	87
9	الليل	92
10	الفجر	89
11	الضحى	93
12	الشرح	94
13	العصر	103
14	العاديات	100
15	الكوثر	108
16	التكاثر	102
17	الماعون	107
18	الكافرون	109
19	الفيل	105
21	الناس	114
22	التوحيد	112

ترتيب النزول	السورة	ترتيب المصحف
23	النجم	53
24	عبس	80
25	القدر	97
26	الشمس	91
27	البروج	85
28	التين	95
29	قريش	106
30	القارعة	101
31	القيامة	75
32	الهمزة	104
33	المرسلات	77
34	ق	50
35	البلد	90
36	الطارق	86
37	القمر	54
38	ص	38
39	الأعراف	7
40	الجّن	72
41	يس	36
42	الفرقان	25
43	فاطر	35

(1) سقطت الفاتحة من رواية ابن عباس، فأثبتناها على رواية جابر بن زيد: السيوطي، الإتقان، ج 1، ص 25 وعلى نص تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 26.

ترتيب النزول	السورة	ترتيب المصحف
44	مريم	19
45	طه	20
46	الواقعة	56
47	الشعراء	26
48	النمل	27
49	القصص	28
50	الإسراء	17
51	يونس	10
52	هود	11
53	يوسف	12
54	الحجر	15
55	الأنعام	6
56	الصّافات	37
57	لقمان	31
58	سبأ	34
59	الزمر	39
60	غافر	40
61	فصّلت	41
62	الشورى	42
63	الزخرف	43
64	الدخان	44
65	الجاثية	45
66	الأحقاف	46
67	الذاريات	51
68	الغاشية	88

ترتيب النزول	السورة	ترتيب المصحف
69	الكهف	18
70	النحل	16
71	نوح	71
72	إبراهيم	14
73	الأنبياء	21
74	المؤمنون	23
75	السجدة	32
76	الطور	52
77	الملك	67
78	الحاقّة	69
79	المعارج	70
80	النبأ	78
81	النازعات	79
82	الانفطار	82
83	الانشقاق	84
84	الروم	30
85	العنكبوت	29
86	المطفّفين	83
87	البقرة	2
88	الأنفال	8
89	آل عمران	3
90	الأحزاب	33
91	الممتحنة	60
92	النساء	4
93	الزلزال	99

ترتيب النزول	السورة	ترتيب المصحف
94	الحديد	57
95	محمّد	47
96	الرعد	13
97	الرحمان	55
98	الإنسان	76
99	الطلاق	65
100	البينة	98
101	الحشر	59
102	النصر	110
103	النور	24
104	الحجّ	22

ترتيب النزول	السورة	ترتيب المصحف
105	المنافقون	63
106	المجادلة	58
107	الحجرات	49
108	التحريم	66
109	الجمعة	62
110	التغابن	64
111	الصف [1]	61
112	الفتح	48
113	المائدة [2]	5
114	براءة	9

(1) جعل الزركشي في البرهان سورة الصف بعد التحريم وقبل الجمعة.

(2) قدّم الزركشي براءة على المائدة وجعل هذا الأخير آخر السور.

الدرس التاسع

ترتيب القرآن

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يفهم قضية نظم كلمات القرآن.

2 . يعـرف كيفية تأليف آيـات القرآن علـى الترتيب الموجود.

3 . يستعرض أدلّة جمع الإمام علي عليه السلام للقرآن.

مقدّمة

ترتيب القرآن في شكله الحاضر، في نظم آياته وترتيب سوره، وكذلك في تشكيله وتنقيطه وتفصيلـه إلـى أجزاء ومقاطع، لم يكن وليد عامل واحد، ولـم يكتمل في فترة الوحي الأولى. فقـد مرّت عليـه أدوار وأطوار، ابتدأت بالعهد الرسالي، وانتهت بدور توحيد المصاحف على عهد عثمان، ثم إلى عهد الخليل بن أحمد النحويّ الذي أكمل تشكيله بالوضع الموجود.

والمهـمّ الآن هـو العنايـة بدراسة القـرآن من زاوية جمعـه وتأليفه مصحفـاً بين دفّتين والبحـث عن الفترة التي حصل فيها هذا الجمع والتأليف وعن العوامل التي لعبت هذا الدّور الخطير

والبحث الحاضر يكتمل في ثلاث مراحل أساس:

أوّلاً: نظم كلماته بصورة جمل وتراكيب كلاميّة ضمن الآيات.

ثانياً: ترتيب آياته ضمن السّور.

ثالثاً: ترتيب السّور بين دفّتين على صورة مصحف كامل.

نظم كلماته

لا شـكّ أنّ نظم الكلمات والجمل والتعابير في القـرآن، كلّها بفعله تعالى، لم يحدث فيها أيّ تغيير أو تبديل، لا بزيادة ولا بنقص ولا بتغيير موضعي أصلاً. ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[1]، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[2].

(1) سورة فصّلت، الآية 42.

(2) سورة الحجر، الآية 9.

ولمزيد التوضيح نقول:

أوّلاً: إسناد الكلام إلى متكلّم خاصّ يستدعي أن يكون هو العامل في تنظيم كلماته وتنسيق أسلوبه التعبيري الخاصّ. وبما أنّ القرآن المجيد هو كلام الله العزيز الحميد، فلا بدّ أن يكون الوحي هو العامل الوحيد في تنظيم كلماته جملاً وتراكيب كلاميّة بديعة.

ثانياً: كان أحد أوجه إعجاز القرآن كامناً وراء هذا النظم البديع. وقد تحدّى القرآن فصحاء العرب وأرباب البيان- بصورة عامّة- لو يأتون بمثل هذا القرآن و ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1]. وتجويز إمكان تدخّل يد بشرية في نظم القرآن، كان بمعنى إبطال هذا التحدّي الصارخ.

ثالثاً: اتّفاق كلمة الأمّة في جميع أدوار التاريخ على أنّ النظم الموجود في الآيات الكريمة هو من صنع الوحي السماوي. الأمر الذي التزم به جميع الطوائف الإسلاميّة، على مختلف آرائهم في سائر المواضيع.

تأليف آياته

تأليف الآيات ضمن كلّ سورة، على الترتيب الموجود، فهذا قد تحقّق- في الأكثر- وفق ترتيب نزولها: كانت السور تبتدأ بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فتسجّل الآيات التي تنزل بعدها من نفس هذه السورة، واحدة أخرى تدريجيّاً حسب النزول، حتّى تنزل بسملة أخرى، فيعرف أنّ السورة قد انتهت وابتدأت سورة أخرى.

قال الإمام الصّادق عليه السلام: كان يعرف انقضاء السورة بنزول ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ابتداءً لأخرى[2].

وهناك عامل آخر عمل في نظم قسم من الآيات على خلاف ترتيب نزولها، وذلك بنصّ من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتعيينه الخاصّ. كان يأمر- أحياناً- بوضع آية في موضع خاصّ من سورة سابقة كانت قد ختمت من قبل.

---

(1) سورة الإسراء، الآية 88.

(2) العياشي، تفسير العياشي، ج 1، ص 19، ح 5.

روي أنّ آخـر آية نزلت، قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾[1] فأشار جبرئيل أن توضع بين آيتي الربا والدين من سورة البقرة[2].

وربّمـا كانت السور تفتتح، وقبـل أن تكتمل، تفتتح سورة أخـرى وتكتمل هذه الأخيرة قبل أن تكتمـل الأولى. وذلك كان بأمر النبيّ ﷺ وبإشارته، كما في سورة البقرة، هي أول سورة ابتـدأ نزولها بالمدينة بعد الهجرة، لكنّها استمرّ نزولها سنوات حتّى إلى ما بعد سنة السّت، إذ فيهـا الكثير من الآيات نزلن في هذه الفترات المتأخّرة، منها: آية ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾[3]. إنّها نزلت عندما تحرّج المسلمون من السعي بين الصفا والمروة لمكان أساف ونائلة عليهما، وكان المشركون وضعوهمـا على الجبليـن يطوفون بهما ويلمسونهما. فنزلت الآية دفعـاً لتوهّم الحظر. الأمر الذي يستدعي نزولها بعد صلح الحديبية في عمرة القضاء[4] وهو عام السّت من الهجرة. أو لعلّ النبي ﷺ أمر بوضع الآية في هذا الموضع من السورة. والله العالم.

وهكذا نزلت آيات الحجّ في نفس العام وتثبّت في هذه السورة بالذّات!

ترتيب سوره

انقضى العهد النبويّ والقرآن منثور على العسب واللخاف والرقاع وقطع الأديم[5] وعظام الأكتاف والأضلاع وبعض الحرير والقراطيس وفي صدور الرجال.

كانـت السـور مكتملة على عهده ﷺ مرتّبة آياتها وأسماؤهـا، غير أنَّ جمعها بين دفّتين لـم يكـن حصل بعد، نظراً لترقّب نـزول قرآن على عهده ﷺ فما دام لـم ينقطع الوحي لم يصـحّ تأليف السّور مصحفـاً إلّا بعد الاكتمال وانقطاع الوحي، الأمر الذي لم يكن يتحقّق إلّا بانقضاء عهد النبوّة واكتمال الوحي.

(1) سورة البقرة، الآية 281.
(2) السيوطي، الإتقان، ج 1، ص 62.
(3) سورة البقرة، الآية 158.
(4) روي ذلك عن الإمام الصادق عليه السلام، راجع: تفسير العياشي: ج 1، ص70، وص 133.
(5) العسيب: جريدة النخل إذا كشط خوصها. واللخف: حجارة بيض رقاق. والأديم: الجلد المدبوغ.

عن الإمام الصادق عليه السلام: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام: يا عليّ! القرآن خلف فراشي في الصحف والحرير والقراطيس، فخذوه واجمعوه ولا تُضيّعوه**»[1].

وأوّل من قام بجمع القرآن بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم مباشرة وبوصيّة منه صلى الله عليه وآله وسلم هو الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام ثمّ قام بجمعه زيد بن ثابت بأمر من أبي بكر، كما قام بجمعه كلّ من ابن مسعود وأبي بن كعب وأبي موسى الأشعري وغيرهم، حتّى انتهى الأمر إلى دور عثمان فقام بتوحيد المصاحف وإرسال نسخ موحّدة إلى أطراف البلاد وحمل الناس على قراءتها وترك سواها، على ما سنذكر.

جمع الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

أوّل من تصدّى لجمع القرآن بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم مباشرة وبوصيّة منه هو علي بن أبي طالب عليه السلام قعد في بيته مشتغلاً بجمع القرآن وترتيبه على ما نزل، مع شروح وتفاسير لمواضع مبهمة من الآيات، وبيان أسباب النزول ومواقع النزول بتفصيل.

قال عليه السلام: «**ما نزلت آية على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلّا أقرأنيها وأملاها عليّ فأكتبها بخطّي. وعلّمني تأويلها وتفسيرها وناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها. ودعا الله لي أن يُعلّمني فهمها وحفظها فما نسيت آية من كتاب الله ولا علماً أملاه عليّ فكتبته منذ دعا لي ما دعا**»[2].

وبعث القوم إليه ليُبايع فاعتذر باشتغاله بجمع القرآن، فسكتوا عنه أيّاماً حتّى جمعه في ثوب واحد وختمه ثم خرج إلى الناس وهم مجتمعون حول أبي بكر في المسجد وخاطبهم قائلاً: «**إنّي لم أزل منذ قُبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مشغولاً بغسله وتجهيزه ثمّ بالقرآن حتّى جمعتُه كلّه في هذا الثوب الواحد ولم ينزل الله على نبيّه آية من القرآن إلّا وقد جمعتها، وليس منه آية وقد أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلّمني تأويلها، أن تقولوا غداً: إنّا كنّا عن هذا غافلين**»[3]!.

---

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 92، ص 48، ح 7 عن تفسير علي بن إبراهيم.

(2) الزركسي، تفسير البرهان، ج 1، ص 16، ح 14.

(3) الطبرسي، الاحتجاج ، ص 82.

وفـي عهـد عثمان حيـث اختلفت المصاحـف وأثارت ضجّـة بين المسلميـن، قال طلحة للإمام عليه السلام: وما يمنعك ـ يرحمك الله ـ أن تُخرج كتاب الله إلى الناس؟! فكفّ عليه السلام عن الجـواب أوّلاً، فكرّر طلحة السؤال، فقال: لا أراك يـا أبا الحسن أجبتني عمّا سألتُك من أمر القرآن ألا تُظهره للناس؟

قـال عليه السلام: «**يـا طلحة عمداً كففتُ عـن جوابك. فأخبرنـي عمّا كتبه القوم أقـرآن كلّه أم فيها ما ليس بقرآن**»؟ قال طلحة: بل قرآن كلّه. قال عليه السلام: «**إن أخذتم بما فيه، نجوتم من النار ودخلتم الجنّة**»... قال طلحة: حسبي، أمّا إذا كان قراناً فحسبي[1].

جمع زيد بن ثابت

كان ذلك الرفض القاسي لمصحف علي عليه السلام يستدعي التفكير في القيام بمهمّة جمع القرآن مهما كلّف الأمر، بعد أن أحسّ الناس بضرورة جمع القرآن في مكان، ولا سيّما كانت وصيّة نبيّهم صلى الله عليه وآله وسلم بجمعه لئلّا يضيّع، كما ضيّعت اليهود توراتهم[2].

مضافـاً إلـى أنّـه قد استحرّ القتـل بكثير من حامليـه ويوشك أن يذهب القـرآن بذهاب حامليه، فقد قُتل منهم سبعون في واقعة يمامة. وفي رواية: أربعمأة[3].

وهـذه الفكرة أبداها عمر بن الخطاب، واقترح علـى أبي بكر ـ وهو الخليفة يوم ذاك ـ أن ينتـدب لذلك من تتوفّر فيه شرائط القيـام بهذه المهمّة الخطيرة، فوقع اختيارهم على زيد بـن ثابت، وهـو شابّ حدث فيه مرونة حداثة السن وله سابقـة كتابة الوحي أيضاً. فقد ملك الجدارة الذاتيّة من غير أن يخشى منه على جوانب الخلافة الفتيّة في شيء، كما كان يخشى مـن غيـره من كبار الصحابة، وفيهم شيء من المناعة والجمـوح وعدم الانقياد التّام لميول السلطة واتجاهاتها آنذاك.

منهج زيد

وجّـه زيد نداء عاماً إلى مـلأ الناس: «من كان تلقّى من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً من القرآن فليأتِ به».

---

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 92، ص42، ح 1.

(2) علي بن إبراهيم، تفسير القمي، ص 745، تحقيق السيد طيّب الموسوي الجزائري، مؤسسة دار الكتاب، ط 3.

(3) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج 7، ص 447.

وألّـف لجنة من خمسة وعشرين عضواً. كما جاء في رواية اليعقوبي[1]. وكان عُمَر يُشرف عليهم بنفسه.

وكان اجتماعهـم على باب المسجد يوميّاً والناس يأتونهـم بآي القرآن وسوره، كلّ حسب ما عنده من القرآن.

وكانـوا لا يقبلون من أحد شيئاً حتّى يأتي بشاهديـن يشهدان بصحّة ما عنده من القرآن سـوى خزيمة بن ثابت، أتى بالآيتين آخر سـورة براءة، فقبلوهما منه من غير استشهاد، لأنّ رسـول الله ﷺ اعتبر شهادته وحده شهادتين[2]. والمراد مـن الشاهدين شاهدان عدلان. أحدهمـا الذي أتـى بالآية وعدل آخر. يشهدان بسماعهما قرآنـاً من النبي ﷺ بدليل قبول شهادة خزيمة بن ثابت الذي جاء بآخر سورة براءة، مكان شهادة رجلين وهكذا جاء في نصّ ابن أشته[3].

ومـن غريب الأمر أنّ عُمَر جاء بآية الرّجم وزعمها من القرآن: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهمـا البتّـة نكالاً من الله» لكنّه ووجه بالرفض، ولم تُقبل منه، لأنّه لم يستطع أن يُقيم علـى ذلـك شاهدين وبقي أثـر ذلك في نفس عُمَر، فـكان يقول. أيّام خلافتـه. لولا أن يقول الناس: «زاد عمر في كتاب الله»، لكتبتها بيدي. يعني آية الرّجم.[4].

ثـم إنّ جمع زيد لم يكن مرتّباً ولا منظّمـاً كمصحف، وإنّما كان الاهتمام في ذلك الوقت علـى جمع القرآن وحفظه مـن الضياع، وضبط آياته وسوره حذراً عـن التلف بموت حامليه، فدوّنـت في صحف وجعلت فـي إضبارة، وأودعت عند أبي بكر مـدّة حياته، ثم عند عُمَر بن الخطّـاب حتّـى توفّـاه الله، فصارت عنـد ابنته حفصة، وهـي النسخة التـي أخذها عثمان لمقابلـة المصاحـف عليها، ثمّ ردّه عليها، وكانت عندها إلـى أن ماتت، فاستلبها مروان من ورثتها حينما كان والياً على المدينة من قِبَل معاوية، فأمر بها فشُقَّت[5].

(1) تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 113.
(2) ابن الأثير، أسد الغابة، ج 2، ص 114.
(3) السيوطي، الإتقان، ج 1، ص 58.
(4) الزركشي، والبرهان، ج 2، ص35.
(5) القسطلاني، إرشاد الساري، ج 7، ص 449.

المفاهيم الرئيسة

- أنّ نظـم الكلمات والجمل والتعابير في القرآن، كلّهـا بفعله تعالى، لم يحدث فيها أيّ تغيير أو تبديل.
- تأليف الآيات ضمن كلّ سورة، على الترتيب الموجود، فهذا قد تحقّق ـ في الأكثر ـ وفق ترتيـب نزولهـا: كانت السور تبتدأ بـ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فتسجّـل الآيات التي تنزل بعدها من نفس هذه السورة.
- وهنـاك عامـل آخر عمل في نظـم قسم من الآيات على خلاف ترتيـب نزولها، وذلك بنصّ من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتعيينه الخاصّ.
- كانت السور مكتملة على عهده صلى الله عليه وآله وسلم مرتّبة آياتها وأسماؤها، غير أنَّ جمعها بين دفّتين لم يكن حصل بعد، نظراً لترقّب نزول قرآن على عهده صلى الله عليه وآله وسلم فما دام لم ينقطع الوحي لم يصحّ تأليف السّور مصحفاً.
- أوّل من تصدّى لجمع القرآن بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم مباشرة وبوصيّة منه هو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.
- بعـد رفض مصحف الامام علي عليه السلام تم تكليف زيد بجمـع القرآن الذي بدوره وجّه زيـد نداء عاماً إلى مـلأ الناس: «من كان تلقّى من رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً من القرآن فليأت به»، وألّف لجنة من خمسة وعشرين عضواً.
- إنّ جمـع زيد لم يكن مرتّبـاً ولا منظّماً كمصحف، وإنّما كان الاهتمام في ذلك الوقت على جمع القرآن وحفظه من الضياع.

للمطالعة

مصاحف الصحابة

فـي الفترة بعـد وفاة النبي ﷺ قامت جماعة من كبار الصحابـة بتأليف القرآن، وجمع سوره بين دفّتين، كلّ بنظم وترتيب خاصّ، وكان يُسمّى مصحفاً.

وحاز بعض هذه المصاحف مقاماً رفيعاً في المجتمع الإسلامي آنذاك، فكان أهل الكوفة يقـرؤون على مصحف عبد الله بن مسعود، وأهـل البصرة يقرؤون على مصحف أبي موسى الأشعري، وأهل الشام على مصحف أُبيّ بن كعب. وأهل دمشق خاصّة على مصحف المقداد بن الأسود وفي رواية الكامل: أنّ أهل حمص كانوا على قراءة المقداد[1].

وصف عامّ من مصاحف الصحابة

كان الطابـع العامّ الـذي كانت المصاحف آنذاك تتّسم به هـو تقديم السور الطوال على القصار نوعاً ما في ترتيب منهجيّ خاصّ.

1. ابتداء مـن السور الطوال: البقـرة، آل عمران، النساء، الأعـراف، الأنعام، المائدة، يونس[2].
2. ثم المئين: وهي السور تربو آياتها على المائة، وهي ما تقرب من اثنتي عشرة سورة.
3. ثم المثاني: وهي السور لا تبلغ آياتها المائة، وهي ما تقرب من عشرين سورة. وسمّيت مثاني لأنّها تثنّى أي تكرّر قراءتها أكثر ممّا تقرأ غيرها من الطوال والمئين.
4. ثم الحواميم: وهي السور بدأت بـ: «حم» وهي سبع سور.
5. ثم الممتحنات: وهي ما تقرب عشرين سورة.
6. ثم المفصّلات: تبتدىء من سورة الرحمن إلى آخر القرآن.

وسُمّيت بذلك لقرب فواصلها وكثرة فصولها.

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 3، ص 55، والمصاحف للسجستاني: ص 11، 14. الزركشي، البرهان، ج 1، ص 239 ـ 243.

(2) تلـك السبـع الطوال في مصاحف الصحابة، غير أنّ عثمان عمد إلى تقديم سورة الأنفال فزعمها مع سورة براءة سورة واحدة جعلهما من السبع الطوال. راجع: السيوطي، الإتقان، ج 1، ص60، الحاكم النيسابوري ومستدرك الحاكم، ج 2، ص 221.

هـذا هو الطابع العـام لمصاحف الصحابة وإن كانت المصاحـف تختلف مع بعضها في تقديم بعض السور على بعض وتأخيرها عنها أو يزيد عدد سور بعضها على بعض[1].

أمد هذه المصاحف

كان أمـد هـذه المصاحف قصيراً جـدّاً انتهى بدور توحيد المصاحـف على عهد عثمان فذهبت مصاحف الصحابة عرضة التمزيق والحرق.

أرسل عثمان إلى كلّ أفق بمصحف ممّا نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحرق[2]. نعم حظيت بعض هذه المصاحف عمراً أطول، كالصحف التي كانت عند حفصة.

(1) من أراد الوقوف عليها فليراجع محمد هادي معرفة، «التمهيد في علوم القرآن» ج 1، ص 312 ـ 331.

(2) صحيح البخاري، ج 6، ص 226، نشر دار الفكر للطباعة والنشر – لبنان 1981م، كتاب فضائل القرآن.

الدرس العاشر

الرسم القرآنيّ

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يتعرّف على أقسام الرسم القرآنيّ.

2 . يُميّز بين بعض كلمات الرسم العثمانيّ والرسم القياسيّ.

3 . يشرح خصائص الرسم العثماني.

قال الله تبارك وتعالى ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾[1].

أنـزل الله سبحانه وتعالـى القرآن الكريم بلسـان العرب؛ وذلك لأنّ كلّ نبـيّ أُنزل كتابه بلسان قومه، والقرآن الكريم ليس أمراً ونهياً وكلمات ومعاني فقط، بل هو رسم أيضاً.

ومن المعلوم أنّ للقرآن الكريم منهجاً خاصّاً في الكتابة، يختلف نوعاً ما عن الكتابة الّتي أَلِفَها الناس.

أقسام الرسم القرآنيّ

قسّم العلماء الرسم الكتابيّ ـ الخطّ الإملائيّ ـ إلى قسمين رئيسين.

الأوّل: أطلقوا عليه اسم الرسم القياسيّ، ويقصدون به كتابة الكلمة كما تُلفظ، مع الأخذ بعين الاعتبار حالتي الابتداء بها والوقف عليها.

الثاني: أطلقوا عليه اسم الرسم التوقيفيّ، ويقصدون به الرسم العثمانيّ، إذ هو الرسم الّذي كُتبت به المصاحف.

وقـد صنّـف العلماء فـي هذا المجال مـا عُرف بـ «علم الرسـم القرآنيّ» ووضعـوا كتباً خاصّة في هذا الموضوع، منها، على سبيل المثال لا الحصر، كتاب «المقنع في معرفة رسم مصاحف الأمصار» لأبي عمرو الداني، وكتاب التنزيل لأبي داود سليمان نجاح.

(1) سورة الزخرف، الآيات 1 – 3.

متباينات الرسم العثمانيّ والرسم القياسيّ

إنّ الرسم العثمانيّ يُخالف الرسم القياسيّ من بعض الوجوه، أهمّها خمسة وجوه، نذكرها فيما يأتي مع التمثيل لها:

الوجه الأول، الحذف:

وهو كثير، ويقع في حذف الألف، والواو، والياء.

فمن أمثلة حذف الألف، قوله تعالى: ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[1] حيث حُذفت الألف بعد العين، وقد كُتبت كذلك في جميع مواضعها في القرآن، والأصل في كتابتها حسب الرسم الإملائيّ (العالمين).

ومن أمثلة حذف الواو، قوله تعالى: ﴿وَٱلۡغَاوُۥنَ﴾[2]، وقد وردت في موضعين من القرآن، والأصل فيها (الغاوون).

ومن أمثلة حذف الياء، قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[3]، وقد وردت كذلك في جميع مواضعها في القرآن، وعدد مواضعها ثلاثة عشر موضعاً، والأصل في كتابتها (النبيّين).

ومن وجوه حذف الأحرف أيضاً، حذف اللام والميم.

فمثال حذف اللام، قوله تعالى: ﴿ٱلَّيۡلِ﴾[4] وقد كتبت كذلك في جميع مواضعها، وعددها ثلاثة وسبعون موضعاً، والأصل فيها (الليل).

ومثال حذف النون ﴿نُنجِ﴾[5] والأصل فيها (ننجي).

1. **كلمة «اسم»:**

قال الله تعالى ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ٩٥ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٩٦﴾[6]، ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾[7]، حيث وردت كلمة (اسم) بألف صريحة، بينما في البسملة مثلاً: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١﴾[8] بلا ألف.

---

(1) سورة الفاتحة، الآية 2.
(2) سورة الشعراء، الآية 94.
(3) سورة البقرة، الآية 61.
(4) سورة آل عمران، الآية 190.
(5) سورة الأنبياء، الآية 88.
(6) سورة الواقعة، الآيتان 95 و 96.
(7) سورة العلق، الآية 1.
(8) سورة الفاتحة، الآية 1.

2. **كلمة (سموات - سموات):**

وردت كلمة ﴿سَمَٰوَٰتٍ﴾ بهذا الرسم بدون ألف صريحة 189 مرّة في القرآن الكريم... ووردت مرّة واحدة فقط بألف صريحة بعد حرف (و) بالرسم القرآنيّ، ﴿سَمَٰوَاتٍ﴾ وذلك في الآية الكريمة رقم 12 من سورة فصّلت ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾[1].

3. **كلمة (الميعاد. الميعاد):**

وردت كلمة (الميعاد) وذلك بألف صريحة في وسط الكلمة 4 مرّات في القرآن الكريم... وكلّها تتكلّم عن الميعاد الأخروي الّذي وعده الله سبحانه وتعالى.. لذلك جاء الميعاد واضحاً وصريحاً ولا ريب فيه مثال ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾[2]، ولمّا تحدّث القرآن عن لقاء المسلمين بالكفّار في المعركة جاءت الكلمة بلا ألف صريحة: ﴿وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ﴾[3].

4. **كلمة (سعوا. سعو):**

وردت (سعوا) بشكلها العادي مرّة واحدة: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾[4]، ووردت (سعو) ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾[5] بشكلها غير العادي بدون ألف في آخرها مرّة واحدة أيضاً في القرآن الكريم.

5. **كلمة (صحب. صاحب):**

في الآية 34 من سورة الكهف يقول القرآن الكريم على لسان مالك الجنّتين: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾[6]، بألف متروكة.

---

(1) سورة فصّلت، الآية 12.
(2) سورة آل عمران، الآية 9.
(3) سورة الأنفال، الآية 42.
(4) سورة الحج، الآية 51.
(5) سورة سبأ، الآية 5.
(6) سورة الكهف، الآية 34.

غيـر أنّ الـردّ يأتيه مـن صاحبه المؤمن فـي الآية 37 من نفس سـورة الكهف: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾[1] باستخـدام الألف الصريحة، والمدّ بالألف المتروكة.

6. حذف حرف الواو من بعض الأفعال:

ورد أنّه تمّ كتابة هذه الأفعال الأربعة بحذف الواو وهي:

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾[2]، ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ ﴾[3]، ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ ﴾[4]، ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾[5] ولكن من غير نقط ولا شكل في الجميع.

7. كلمة (وسئل . فسئل):

ورد فـي القـرآن الكريم كلّه فعل الأمر من (سأل) ناقصاً حـرف (أ) في البداية. ونذكر فيما يلي نماذج من الآيات الكريمة الّتي ورد فيها هذا الفعل:

قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا ﴾[6].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ ﴾[7].

8. كلمة (أيد . أييد):

وردت كلمـة (أيد) وهي جمع يد مرّتين في القرآن الكريم بهذا الرسم العاديّ، وذلك في الآيتين التاليتين:

قال اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾[8].

غير أنّها وردت مرّة واحدة برسم مختلف يزيد حرف (ي) في منتصفها، وذلك في الآية الكريمة الآتية: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾[9].

---

(1) سورة الكهف، الآية 37.
(2) سورة الإسراء، الآية 11.
(3) سورة الشورى، الآية 24.
(4) سورة القمر، الآية 6.
(5) سورة العلق، الآية 18.
(6) سورة يوسف، الآية 82.
(7) سورة النحل، الآية 43.
(8) سورة ص، الآية 17.
(9) سورة الذاريات، الآية 47.

الوجه الثاني، الزيادة:

وتكـون فـي الألف، والـواو، والياء، فمثـال الزيادة فـي الألف قوله تعالـى: ﴿وَجِاْيٓءَ﴾[1]، والأصل فيها (وجيء).

ومثال الزيادة في الواو قوله تعالى ﴿سَأُوْرِيكُمْ﴾[2]، والأصل فيها (سأريكم).

ومثـال الزيادة في الياء قوله تعالى ﴿بِأَيْيْدٍ﴾[3]، وهو الموضع الوحيد في القرآن، والأصل فيها (بأيدٍ).

الوجه الثالث، الهمز:

حيث وردت الهمزة في الرسم العثمانيّ تارةً برسم الألف، وتارة برسم الواو، وتارة برسم الياء.

فمـن أمثلة ورودهـا ألفاً، قولـه تعالى ﴿لَنَنُوٓأُ﴾[4]، وهـو الموضع الوحيـد، والأصل فيها (لتنوء).

ومـن أمثلة ورودها واواً قولـه تعالى: ﴿يَبْدَؤُاْ﴾[5]، وهي كذلك فـي مواضعها الستّة من القرآن، والأصل فيها (يبدأ).

ومن أمثلة مجيئها ياءً، قوله تعالى ﴿وَإِيتَآيِ﴾[6]، وهو الموضع الوحيد من ثلاثة مواضع، والأصل فيها (وإيتاء).

الوجه الرابع، البدل:

ويقـع برسم الألف واواً أو ياء، فمن مجيئها واواً قوله تعالى: ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾[7]، وهي كذلك فـي جميـع مواضعهـا الأربعـة والستّيـن، والأصـل (الصـلاة) ومثلهـا (الـزكاة).

ومن صور رسمها ياءً، قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ﴾[8]، والأصل فيها (يا أسفا).

---

(1) سورة الزمر، الآية 69، سورة الفجر، الآية 23.
(2) سورة الأعراف، الآية 145.
(3) سورة الذاريات، الآية 47.
(4) سورة القصص، الآية 76.
(5) سورة يونس، الآية 34.
(6) سورة النحل، الآية 90.
(7) سورة البقرة، الآية 3.
(8) سورة يوسف، الآية 84.

ومـن ذلك أيضـاً، قوله تعالى ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾[1]، ولم ترد إلّا في هـذا الموضع، والأصل فيها (والضحا).

الوجه الخامس، الفصل والوصل:

فقـد رسمت بعض الكلمات في المصحف العثمانيّ متّصلة مع أنّ حقّها الفصل، ورسمت كلمات أخرى منفصلة مع أنّ حقّها الوصل، فمن أمثلة ما اتّصل وحقّه الفصل ما يلي:

(عـن) مع (ما) حيـث رسمتا في مواضع من القـرآن الكريم متّصلتيـن، من ذلك قوله تعالى: ﴿عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾[2]، وقد وردت كذلك في جميع المواضع.

(بئس) مع (ما) رسمتا متّصلتين في مواضع، من ذلك قوله تعالى: ﴿بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ﴾[3]، وهي كذلك في مواضعها الثلاثة.

(كي) مع (لا) رسمتا متّصلتين في مواضع، من ذلك قوله تعالى ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾[4]، وهي كذلك في مواضعها الأربعة.

ومن أمثلة ما انفصل وحقّه الوصل ما يلي:

- قولـه تعالـى: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَا﴾[5]، وقـد جـاءت كذلـك في ثلاثة مواضع، وجاءت متّصلة على الأصل في خمسة عشر موضعاً.
- قولـه تعالى: ﴿أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾[6]، وقد جاءت كذلك في ثمانية مواضع، وجاءت متّصلة على الأصل في أربعة مواضع.

هذه الوجوه الخمسة الّتي أتينا على ذكرها، مع شيء من التمثيل لها، هي أهمّ الوجوه الّتي فارق فيها الرسم العثمانيّ الرسم الإملائيّ.

---

(1) سورة الضحى، الآية 1.
(2) سورة البقرة، الآية 74.
(3) سورة البقرة، الآية 90.
(4) سورة آل عمران، الآية 153.
(5) سورة النساء، الآية 91.
(6) سورة البقرة، الآية 148.

المفاهيم الرئيسة

- قسّم العلماء الرسم الكتابيّ ـ الخطّ الإملائيّ ـ إلى قسمين رئيسين:

الأوّل: أطلقوا عليه اسم الرسم القياسيّ، ويقصدون به كتابة الكلمة كما تُلفظ، مع الأخذ بعين الاعتبار حالتي الابتداء بها والوقف عليها.

الثاني: أطلقوا عليه اسم الرسم التوقيفيّ، ويقصدون به الرسم العثمانيّ، إذ هو الرسم الّذي كُتبت به المصاحف.

- إنّ الرسم العثمانيّ يُخالف الرسم القياسيّ من بعض الوجوه، أهمّها خمسة وجوه: الحذف، الزيادة، الهمز، البدل، الفصل والوصل.

للمطالعة

لا يقتصر دور القرآن الكريم على هداية الإنسان إلى طريق النجاة في الآخرة، بل دوره يرتبط بكافّة جوانب حياة الإنسان، فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنّ هذا القرآن هو الناصح الّذي لا يغشّ، والهادي الّذي لا يضلّ، والمحدّث الّذي لا يكذب، وما جالس هذا القرآن أحد إلّا قام عنه بزيادة أو نقصان، زيادة في هدى ونقصان من عمى، واعلموا أنّه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنى، فاستشفوه من أدوائكم، واستعينوا به على بلوائكم، فإنّ فيه شفاء من أكبر الداء وهو الكفر والنفاق والعمى والضلال.**

اسألوا الله به وتوجّهوا إليه بحبّه، ولا تسألوا به خلقه؛ إنّه ما توجّه العباد إلى الله بمثله. واعلموا أنّه شافع مشفّع، وقائل مصدّق وأنّه من شفع له القرآن يوم القيامة شُفّع فيه، ومن مَحِلَ به القرآن يوم القيامة صدق عليه، فإنّه ينادي مناد يوم القيامة ألا إنّ كلّ حارث مبتلى في حرثه وعاقبة عمله، غير حرثة القرآن، فكونوا من حرثته وأتباعه، واستدلّوه على ربّكم، واستنصحوه على أنفسكم، واتهموا عليه آراءكم، واستغشوا فيه أهواءكم»[1].

(1) الشريف الرضي، خطب الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، ج2، ص92.

الدرس الحادي عشر

الإعجاز القرآني

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يعرف معنى الإعجاز.

2 . يفهم فلسفة تنوّع المعجزات وأقسامها.

3 . يتبيّن أسلوب القرآن في تحدّي الأمم.

معنى الإعجاز

أ. **المعنى اللغوي**: العين والجيم والزاء أصلان صحيحان يدلّ أحدهما على الضعف، والآخر على مؤخّر الشيء، فالأول: عجز عن الشيء يعجز عجزاً؛ فهو عاجز؛ أي ضعيف... ويقال: أعجزني فلان: إذا عجزت عن طلبه وإدراكه[1]. والعَجْزُ: أصلُه التَّأَخُّرُ عن الشيء، وحصوله عند عَجُزِ الأمرِ؛ أي: مؤخّره... وصار في التّعارف اسماً للقصور عن فعل الشيء؛ وهو ضدّ القدرة[2].

ب. **المعنى الاصطلاحي**: المُعْجِز هو: الأمر الخارق للعادة، المطابق للدعوى، المقرون بالتحدّي[3]. والإعجاز هو: أن يأتي المدّعي لمنصب من المناصب الإلهية بما يخرق نواميس الطبيعة ويعجز عنه غيره شاهداً على صدق دعواه، مع إمكان صدق هذه الدعوى بحكم العقل، أو النقل الثابت عن نبي أو إمام معصوم[4].

فلسفة تنوّع المعجزات

روي أنّه سأل ابن السكّيت[5] الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، فقال: لماذا بعث الله موسى بن عمران عليه السلام بالعصا ويده البيضاء وآلة السحر؟ وبعث عيسى بآلة الطب؟ وبعث

(1) انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج4، ص 232، مادّة «عجز».

(2) انظر: الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص 547، مادّة «عجز».

(3) انظر: الطريحي، فخر الدين: مجمع البحرين، ج4، ص25، ط2، طهران، نشر مرتضوي؛ مطبعة چاپخانهء طراوت، 1362هـ.ش، مادّة «عجز».

(4) انظر: الخوئي، البيان في تفسير القرآن، ص33-34.

(5) هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الدورقي الأهوازي الشيعي؛ أحد أئمّة اللغة والأدب، ذكره كثير من المؤرّخين وأثنوا عليه، وكان ثقةً جليلاً من عظماء الشيعة، ويُعدّ من خواصّ الإمامين التقيّين (عليهما)، وكان حامل لواء علم العربية والأدب والشعر واللغة والنحو، له تصانيف كثيرة مفيدة، منها: كتاب تهذيب الألفاظ، وكتاب إصلاح المنطق.

محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بالكلام والخطب؟ فقال عليه السلام: «**إنّ الله لمّا بعث موسى عليه السلام كان الغالب على أهل عصره السحر، فأتاهم من عند الله بما لم يكن في وسعهم مثله، وما أبطل به سحرهم، وأثبت به الحجّة عليهم. وإنّ الله بعث عيسى عليه السلام في وقت قد ظهرت فيه الزمانات[1]، واحتاج الناس إلى الطب، فأتاهم من عند الله بما لم يكن عندهم مثله، وبما أحيى لهم الموتى، وأبرء الأكمه والأبرص بإذن الله، وأثبت به الحجّة عليهم. وإنّ الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم في وقت كان الغالب على أهل عصره الخطب والكلام، فأتاهم من عند الله من مواعظه وحكمه؛ ما أبطل به قولهم، وأثبت به الحجّة عليهم**»[2].

ويُفهَم من هذه الرواية أنّ فلسفة تنوّع المعجزات تدور مدار الخاصّيّة الغالبة على أهل عصر مَن يُجري الله تعالى على يديه المعجزة؛ لتكون أبلغ في التأثير، وأظهر في التحدّي، وآكد في تصديق الدعوة.

ولهذا ذكروا أنّ المعجزة تتنوّع حسب تنوّع الأمم المرسل إليهم في المواهب والمعطيات، فتتناسب مع مستوى رقيّهم في مدارج الكمال، فمن غليظ شديد إلى رقيق مرهف، ومن قريب مشهود إلى دقيق بعيد الآفاق. وهكذا كلّما تقادمت الأمم في الثقافة والحضارة، فإنّ المعاجز المعروضة عليهم من قِبَل الأنبياء عليهم السلام ترِقّ وتلطف، وكانت آخر المعاجز رقّة ولطفاً هي أرقاها نمطاً وأعلاها أسلوباً، ألا وهي معجزة الإسلام الخالدة، عرضت على البشرية جمعاء مع الأبد، مهما ارتقت وتصاعدت في آفاق الكمال، الأمر الذي يتناسب مع خلود شريعة الإسلام.

ولقد صعب على العرب - يومذاك وهم على البداوة الأولى - تحمّل عبء القرآن الثقيل، فلم يُطيقوه. ومن ثمّ تمنّوا لو يُبدّل إلى قرآن غير هذا، ومعجزة أخرى لا تكون من قبيل الكلام: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ﴾[3].

(1) الآفات الواردة على بعض الأعضاء، فيمنعها عن الحركة؛ كالفالج، واللقوة. ويطلق المزمن على مرض طال زمانه.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج1، ص24.
(3) سورة يونس، الآية 15.

إنّهـا لم تكن معجـزة للعرب فقط، وإنّما هي معجزة للبشريّة عبـر الخلود، لكن أنّى لأمّة جهـلاء أن تلمـس تلك الحقيقة وأن تـدرك تلك الواقعيّة سـوى أنّها ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ...﴾[1] وقـد عجب النبي ﷺ من مقترحهم ذلك التافـه الساقط، ممّا يتناسب ومستواهـم الجاهلي ومن ثـمّ رفض اقتراحهم ذلك وقـال: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[2] أي ليس هذا من شأنكم وإنّما هي حكمة بالغة يعلمها الحكيم الخبير.

المعجزات حسّية وعقلية

قال الراغب الإصفهاني: المعجزات التي أتى بها الأنبياء عليهم السلام ضربان: حسّي وعقلي.

فالحسّـي: مـا يُـدرَك بالبصـر، كناقـة صالـح، وطوفـان نـوح، ونـار إبراهيـم، وعصا موسى عليه السلام.

والعقلـي: ما يُـدرك بالبصيرة كالإخبار عن الغيب تعريضـاً وتصريحاً، والإتيان بحقائق العلوم التي حصلت عن غير تعلّم.

فأمّا الحسّي: فيشتـرك في إدراكه العامّة والخاصّة، وهو واقع عند طبقات العامّة، وآخذ بمجامـع قلوبهـم، وأسرع لإدراكهم، إلّا أنّه لا يكاد يفرق - بيـن ما يكون معجزة في الحقيقة وبيـن ما يكـون كهانة أو شعبذة أو سحـراً، أو سبباً اتّفاقياً أو مواطـأة، أو احتيالاً هندسيّاً أو تمويهاً وافتعالاً - إلّا ذو سعة في العلوم التي يعرف بها الأنبياء.

وأمّا العقلي: فيختصّ بإدراكه كلمة الخواصّ من ذوي العقول الراجحة، والأفهام الثاقبة، الذين يُغنيهم إدراك الحق.

ومـا أتى به النبي ﷺ من معجزاته الحسيّة، كتسبيح الحصا في يده، ومكالمة الذئب له، ومجيء الشجرة إليه، فقد حواها وأحصاه أصحاب الحديث.

(1) سورة الإسراء، الآيات 90 - 93.

(2) سورة الإسراء، الآية 93.

وأمّـا العقليّات: فمن تفكّر فيما أورده عليه السلام من الحكـم التي قصرت عن بعضها أفهام حكماء الأمم بأوجز عبارة اطلع على أشياء عجيبة.

وممّـا خصّه الله تعالى به من المعجزات القـرآن، وهو آية حسيّة عقليّة صامتة ناطقة باقية مدى الدهر مبثوثة في الأرض، ولذلك قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ﴾[1]. ودعاهـم ليـلاً ونهـاراً – مع كونهم أولـي بسطة في البيان – إلـى معارضته، بنحو قولـه: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ...﴾[2] وفـي موضـع آخـر: ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[3]. وقال: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[4].

فجعل عجزهم علماً للرسالة، فلو قدروا ما قصّروا، إذ قد بذلوا أرواحهم في إطفاء نوره وتوهين أمره، فلمّا رأيناهم تارة يقولون: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾[5]. وتارة يقولون: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا﴾[6] وتارة يصفونه بأنّه: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[7]. وتارة يقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ﴾[8]. وتـارة يقولون: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ﴾[9]، كل ذلـك عجـزاً عن الإتيـان بمثله، علمنا قصورهم عنـه، ومحال أن يُقـال: إنّه عورض فلم ينقل، فالنفوس مهتزّة لنقل ما دقّ وجلّ. وقد رأينا كتباً كثيرة صنّفت في الطعن على الإسلام قد نقلت وتُدوولت.

(1) سورة العنكبوت، الآيتان 50 و 51.
(2) سورة البقرة، الآية 23.
(3) سورة يونس، الآية 38.
(4) سورة الإسراء، الآية 88.
(5) سورة فصّلت، الآية 26.
(6) سورة الأنفال، الآية 31.
(7) سورة النحل، الآية 24.
(8) سورة الفرقان، الآية 32.
(9) سورة يونس، الآية 15.

ويمتـاز القـرآن على سائر المعاجز بأنّـه يضمّ إلى جانب كونه معجـزاً جانب كونه كتاب تشريـع، فقد قُرن التشريع بإعجاز ووحّد بينهما، فكانت دعوة يُرافقها شهادة من ذاتها، دلّ على ذاته بذاته.

التحدّي في خطوات

لقـد تحدّى القرآن عامّة العـرب، فحاولوا معارضته ولكن لا بالـكلام، لعجزهم عنه، بل بمقارعة السيوف وبذل الأموال والنفوس، دليلاً على فشلهم على مقابلته بالبيان.

وربّمـا كانوا - في بدء الأمر - استقلّوا من شأنه، حيث قالوا: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1]. وقالـوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾[2] وقالـوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾[3] وقالـوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾[4]، إلـى أمثالهـا مـن تعابير تنـمّ عن سخف أوهامهم. لكن سرعان ما تراجعت العرب على أعقابها فانقلبوا صاغرين، وقد ملكتهم روعة هذا الكلام وطغت عليهم سطوته، متهكّماً بموقفهم هذا الفاشل ومتحدّياً في مواضع.

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾[5].

وحـدّد لهم لـو يأتوا بعشر سور مثلـه مفتريات فيما كانـوا يزعمون: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾[6].

وتصاغـراً مـن شأنهم تنازل أن لو استطاعوا أن يأتوا بسورة واحدة من مثله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ﴾[7].

---

(1) سورة الأنفال، الآية 31.
(2) سورة المدثر، الآية 25.
(3) سورة النحل، الآية 103.
(4) سورة الأنعام، الآية 91.
(5) سورة الطور، الآيتان 33 و 34.
(6) سورة هود، الآيتان 13 و 14.
(7) سورة يونس، الآيتان 38 و 39.

وأخيـراً حكم عليهم حكمه البـاتّ: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾[1] أن ليس باستطاعتهم ذلك مهما حاولوه وأعدّوا له من حول وقوّة، لأنّه كلام يفوق كلام البشر كافّة.

والآن وقد حان إعلان التحدّي بصورته العامّة متوجّهاً إلى البشريّة جمعاء، تحدّياً مستمرّاً عبر الأجيال: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[2].

وهـل وقع التحدّي بجميـع وجوه الإعجـاز أم كان يخصّ جانب فصاحتـه وبلاغته وبديع نظمه وعجيب أسلوبه فحسب؟

ولعلّـه يختلف حسب اختلاف الخطاب... فحيث كان التحـدّي متوجّهاً إلى العرب خاصّة ولا سيّمـا ذلـك العهد، الذي كانت مهنة العرب فيه خاصة بجانـب البيان وطلاقة اللسان... فلا جرم كان التحدّي حينذاك أيضاً خاصّاً بهذا الجانب في ظاهرة الخطاب...

أمّـا وبعـد أن توجّه النداء العامّ إلى كافّة البشرية على الإطلاق فإنّه لا بدّ أن يقع التحدّي بمجموعـة وجـوه الإعجاز من حيث المجمـوع... حيث اختلاف الاستعـدادات والقابليات... والقرآن معجزة الإسلام لجميـع الأدوار وعامّة الأجيال ولمختلف طبقات الناس، في الفنون والمعارف والعلوم والثقافات...

التحدّي في شموله

وهذا التحدّي في عمومه يشمل كلّ الأمم كلّ أدوار التاريخ، سواء العرب وغيرهم، وسواء من كان في عهد الرسالة أم في عهود متأخّرة حتى الأبد. اللفظ عامّ والخطاب شامل[3] ولأنّ التحـدّي لم يكن في تعبيره اللفظي فقط ليخصّ لغة العـرب، وإنّما هو بمجموعته من كيفيّة الأداء والبيـان والمحتوى جميعاً. كما أنّه لم يخصّ جانب فصاحته فحسب، ليكون مقصوراً على العهـد الأوّل، حيث العرب في ازدهار الفصاحة والأدب. على أنّ الفصاحة والبلاغة لم

(1) سورة البقرة، الآية 24.

(2) سورة الإسراء، الآية 88.

(3) وبالتعبيـر الاصطلاحي الأصولي: إنّ هذا الخطاب يضمّ إلـى جانب عمومه الأفرادي إطلاقاً أحوالياً وإطلاقاً زمانياً معاً ،إذن فللخطـاب شمـول من النواحي الثـلاث: الأفراد الموجودون، والأقوام الذيـن يأتون من بعد. وأيّاً كانـت حالتهم وعلى أيّ صفة كانوا...

تختصّ بلغة دون أخرى ولا بأمّة دون غيرها.

لكـن هناك من حاول اختصاص التحدّي بالعهـد الأوّل وإن كان الإعجاز باقياً مع الخلود زعمـاً بأنّ عجـز ذلك الدور يكفي دليـلاً على كونه معجـزاً أبداً. هكذا زعمـت الكاتبة بنت الشاطـىء، قالت: مناط التحدّي هو عجز بلغاء العرب في عصر المبعث، وأمّا حجّة إعجازه فلا تخصّ عصراً دون عصر وتعمّ العرب والعجم، وكان عجز البلغاء من العصر الأوّل وهم أهل الفصاحة برهاناً فاصلاً في قضيّة التحدّي...[1].

قلـت: ولعلهـا في ذهابها هذا المذهب، خشيت أن لو قلنا بـأنّ التحدّي قائم ولا يزال، أن سوف ينبري نائرة الكفر والإلحاد، ممّن لا يقلّ عددهم في الناطقين بالضّاد، فيأتي بحديث مثله، وبذلك ينقض أكبر دعامة من دعائم الإسلام.

لكنّهـا فلتطمئـن أنّ هذا لم يقع ولن يكـون، لأنّ القرآن وضع على أسلـوب لا يُدانيه كلام بشر البتّة ولن يتمكّن أحد أن يُجاريه لا تعبيراً وأداءً ولا سبكاً وأسلوباً. ما دام الإعجاز قائماً بمجموعـة اللفظ والمعنى، رفعة وشموخ في المحتوى، وجمال وبهاء في اللفظ والتعبير، فأيّ متكلّم أو ناطق يُمكنه الإتيان بهكذا مطالب رفيعة، لم تسبق لها سابقة في البشريّة وفي هكذا قالب جميل! اللّهم إلّا أن يفضح نفسه.

وفـي التاريخ عِبَرٌ عن أُناس حاولوا معارضة القرآن، لكنّهم أتوا بكلام لا يُشبه القرآن ولا يُشبه كلام أنفسهم، بل نزلوا إلى ضرب من السخف والتفاهة، بادٍ عواره، باقٍ عاره وشناره، فمـن حدّثته نفسه أن يُعيد هـذه التجربة، فلينظر في تلك العبر، ومن لـم يستحِ فليصنع ما شاء.

وتلك شهادات من أهل صناعة الأدب، اعترفوا - عبر العصور - بأنّ القرآن فذّ في أُسلوبه لا يُمكن لأحد من الناس أن يُقاربه فضلاً عن أن يُماثله.

قـال الدكتـور عبـد الله درّاز: من كانت عنده شبهـة، زاعماً أنّ في النـاس من يقدر على الإتيـان بمثله، فلنرجع إلى أدباء عصره، وليسألهم: هل يقدر أحد منهم على أن يأتي بمثله؟ فـإن قالوا: نعم، لو نشـاء لقلنا مثل هذا، فليقل لهم: هاتوا برهانكـم. وإن قالوا: لا طاقة لنا

(1) الدكتورة عائشة عبد الرحمان (بنت الشاطئ)، الإعجاز البياني، ص 65 – 68.

بـه. فليقل لهـم: أيّ شيء أكبر شهادة على الإعجاز من الشهـادة على العجز. ثم ليرجع إلى التاريـخ فليسأله ما بال القـرون الأولى؟ يُنبئك التاريخ أنّ أحداً لم يرفـع رأسه أمام القرآن الكريـم، وأنّ بضعة النفر الذين انغضوا رؤوسهم إليه، باؤوا بالخزي والهوان، وسحب الدهر على آثارهم ذيل النسيان[1].

سرّ الإعجاز

وجوه الإعجاز في مختلف الآراء والنظرات:

اختلـف أنظـار العلماء في وجه إعجاز القرآن، بين من أنهـاه إلى عدّة وجوه ومن اقتصر على وجه واحد:

1. ذهـب أرباب الأدب والبيان إلى أنّها الفصاحـة البالغة والبلاغة الفائقة، إنْ في بديع نظمه أو في عجيب رصفه، الذي لم يسبق له نظير ولن يخلفه بديل...

قالوا في دقّة هذا الرصف والنضد: لو انتزعت منه لفظة ثم أُدير بها لغة العرب كلّها على أن يوجد لها نظير في موضعها الخاصّ، لم توجد البتّة...

2. وتوسّع المحدثون في البحث وراء نظامه الصوتي العجيب:

أنغـام وألحـان تبهر العقول وتذهـل النفوس، نظّمـت كلماته على أنظمـة صوتيّة دقيقة، ورصفـت ألفاظـه وعباراته علـى ترصيفات موسيقيّـة رقيقة، متناسبـات الأجراس، متناسبـات التواقيع، في تقاسيم وتراكيب سهلة سلسة، عذبة سائغة، ذات رنّة وجذبة شعرية واستهواء سحري غريب!

3. وأضـاف المحقّقون جانـب اشتماله على معارف ساميـة وتعاليم راقية تُنبئك عن لطيـف سرّ الخليقـة، وبديع فلسفة الوجود، في جلال وعظمـة وكبرياء، بما يترفّع كثيراً عمّا راجت في تعاليم مصطنعة ذلك العهد، سواءٌ في أوساط أهل الكتاب أم الوثنيّين.

(1) النبأ العظيم، ص 75.

4. وهكـذا تشريعاتـه جاءت حكيمـة ومتينـة، متوافقة مع الفطـرة ومتوائمة مـع العقل السليـم... في طهارة وقداسة وسعة وشمول، كانت جامعة كاملة كافلة لإسعاد الحياة في النشأتين.
5. وكانـت براهينه ساطعـة ودلائله ناصعـة، واضحة ولائحة، قامت علـى صدق الدعوة وإثبات الرسالة... في بيان رصين ومنطق رزين وفصل خطاب.
6. واشتماله على أنباء غيبيّة، إمّا سالفة كانت محرّفة سقيمة، فجاءت محرّرة سليمة في القـرآن الكريم، أو إخبار عمّا يأتي، تحقّق صدقهـا بعد فترة قصيرة أو طويلة، كانت شاهدة صدق على صدق الرسالة.
7. إلى جنب إشارات علميّة، عابرة، إلى أسرار من هذا الكون الفسيح، وإلماعات خاطفة إلى حقائق من خفايا الوجود، ممّا لا تكاد تبلغه معرفة الإنسان الكائن يومذاك.
8. وأخيـراً استقامته في البيـان، وسلامته من أيّ تناقض أو اختـلاف، في طول نزوله، وكثـرة تكراره لسرد حوادث الماضين، كلّ مشتمـل على مزيّة ذات حكمة لا توجد في أُختها. وكذا خلوّه عن الأباطيل وعمّا لا طائل تحتها.

تلـك روائع آراء نتجتها أنظار الأدباء، وبدائع أسرار وصلت إليها أفكار العلماء، كانت من وجوه إعجاز القرآن ومزاياه الوسيمة.

المفاهيم الرئيسة

- المُعْجِز هو: الأمر الخارق للعادة، المطابق للدعوى، المقرون بالتحدّي. والإعجاز هو: أن يأتي المدّعي لمنصب من المناصب الإلهية بما يخرق نواميس الطبيعة ويعجز عنه غيره شاهداً على صدق دعواه.
- أنّ فلسفة تنوّع المعجزات تدور مدار الخاصّيّة الغالبة على أهل عصر مَن يُجري الله تعالى على يديه المعجزة؛ لتكون أبلغ في التأثير، وأظهر في التحدّي، وآكد في تصديق الدعوة.
- المعجزات التي أتى بها الأنبياء عليهم السلام ضربان: حسّي وعقلي.

فالحسّي: ما يُدرَك بالبصر ويشترك في إدراكه العامّة والخاصّة.

وأمّا العقلي: فيختصّ بإدراكه كلمة الخواصّ من ذوي العقول الراجحة، والأفهام الثاقبة، الذين يُغنيهم إدراك الحق.

- لقد تحدّى القرآن عامّة العرب، فحاولوا معارضته ولكن لا بالكلام، لعجزهم عنه، بل بمقارعة السيوف وبذل الأموال والنفوس، دليلاً على فشلهم على مقابلته بالبيان.
- وهذا التحدّي في عمومه يشمل وكلّ الأمم كلّ أدوار التاريخ، سواء العرب وغيرهم، وسواء من كان في عهد الرسالة أم في عهود متأخّرة حتى الأبد.

للمطالعة

الإعجاز العلميّ في القرآن

كلّ الكواكب متحرّكة

لقد أصبح أمراً ثابتاً ومؤكّداً في علم الفلك الحديث بأنّه لا وجود لكوكب ساكن في الكون وأنّه لا صحّة لفكرة تقسيم السيّارات والكواكب إلى ثابتة ومتحرّكة كما كان يقول القدماء، بل إنّه لا وجود حتّى لكوكب واحد ساكن في هذا العالم اللّامتناهي. وحتّى سنين خلت كانت السيّارات تُعدّ بحدود الـ300 مليون بينما صاروا يعجزون اليوم عن عدّها وإحصائها.

وقد ورد في القرآن الكريم بصراحة قول الله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[1] أي أنّه لا وجود للكوكب الثابت بل إنّ كلّ واحد منها يسبح ويتحرّك في المدار الّذي حُدِّد له من قِبَل الله تعالى، في حين أنّ بطليموس كان يقول بأنّ الفلك الثامن ما هو إلّا عبارة عن فلك ثابت وأنّ الكواكب الموجودة فيه كواكب ساكنة، لكنّ القرآن الكريم يؤكّد أنّ الجميع في حالة حركة مستمرّة.

الجبال هي المسامير المُثبتة للأرض

لقد أصبح من الأمور الثابتة اليوم كون الجبال الواقعة فوق الأرض والممتدّة جذورها في عمق الكرة الأرضيّة هي السبب في استقرار الأرض. فلولا وجود هذه الجبال فإنّ هذه الكرة الأرضيّة الّتي تقطع أربعة فراسخ في حركتها الانتقاليّة في كلّ دقيقة وأربعة فراسخ أخرى في حركتها الموضعيّة في كلّ ثانية و240 فرسخاً في حركتها الدورانيّة حول نفسها كانت في طريقها إلى الزوال والتلاشي، لكنّ هذه الجبال هي الّتي تمنع تلاشيها. وهذا الأمر سبق أن أشار إليه القرآن المجيد وأكّده قبل ما يزيد على ألف وأربعمائة سنة مضت حيث قال تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾[2] كما جاء في سورة النبأ، الآية: 7.

وكما يقول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في إحدى خطبه الغرّاء: «**فطر الخلائق بقدرته ووتّد بالصخور ميدان أرضه**»[3].

---

(1) سورة يس، الآية 40.

(2) سورة النبأ، الآية 7.

(3) نهج البلاغة، ص39.

الدرس الثاني عشر

صيانة القرآن من التحريف

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يُعدّد الأقوال في معنى التحريف.

2 . يفهم الدلائل على دحض شبهة التحريف.

3 . يحفظ ثلاثة من أدلة عدم التحريف.

ما هو التحريف؟

ذُكر في معنى التحريف عدّة وجوه:

1. **تحريف بمدلول الكلام:** وهو تفسيره على غير وجهه بمعنى تأويله وتحوير دلالته بما لا يكون اللفظ ظاهراً فيه بذاته لا بحسب الوضع ولا بحسب القرائن المعهودة ومن ثمّ فهو تأويل باطل المعبّر عنه بالتفسير بالرأي المنهي عنه في لسان الشريعة المقدّسة.

قال ﷺ: «**من فسّر القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النار**»[1]، أي عمد إلى القرآن ليجعل من رأيه الخاص تفسيراً له.

2. **تحريف قرائي:** فتقرأ الكلمة على خلاف قراءتها المعهودة لدى جمهور المسلمين، وهذا كأكثر اجتهادات القرّاء في قراءاتهم المبتدعة لا عهد لها في الصدر الأوّل، الأمر الذي لا نُجيزه بعد أن كان القرآن واحداً نزل من عند واحد كما في الحديث الشريف[2].

3. **تحريف في لهجة التعبير:** كما في لهجات القبائل تختلف عند النطق بالحرف أو الكلمة في الحركات وفي الأداء. الأمر الذي يجوز، ما دامت بُنية الكلمة الأصليّة محتفظة لا يختلف معناها وقد نزّلنا حديث الأحرف السبعة – على فرض صحّة الإسناد – على إرادة اختلاف لهجات العرب في أداء الكلمات والحروف، بل وحتّى إذا لم تكن اللهجة عربيّة، فإنّ الملائكة ترفعها عربيّة كما في الحديث[3].

---

(1) ابن أبي جمهور، غوالي اللئالي، ج 4، ص 104، رقم 154.

(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج 2، ص 627.

(3) الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج 4، ص 866.

نعـم لا يجـوز إذا كان لحنـاً أي خطأً ومخالفـاً لقواعد الإعراب. قـال تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾[1] وقـد أمرنـا بقراءة القـرآن عربيّـة صحيحة «**تعلّمـوا القرآن بعربيّته**»[2].

وهكـذا إذا كان التحريف اللهجي مغيّراً لمعنى الكلمة فإنّه لا يجوز، ولا سيّما إذا كان عن عمدٍ ولغرض خبيث، كما كانت تفعله اليهود عند اللهج بلفظه «راعنا» فكانت تميل بحركـة العين إلى فوق لتصبح معنى الكلمـة «شرّيرنا» حسبما ذكره الحسين بن علي المغربي[3] وذكره في سورة البقرة (آية: 102) وكذا في سورة النساء (آية: 46).

4. **تحريف بتبديل الكلم**: بأن تتبدّل الكلمة إلى غيرها مرادفة لها أو غير مرادفة. الأمر الـذي كان يجـوّزه ابن مسعود في المترادفات نظراً منه إلـى حفظ المعنى المراد ولا بأس باختلاف اللفظ.

وقـد أسبقنا عـدم جواز ذلك في نصّ الوحي، حيث الإعجاز قائم بلفظه كما هو قائم بمعناه

5. **التحريـف بزيـادة**: وقد نسب إلى ابن مسعود وغيره من السلف كانوا يريدون في نصّ الوحي لغرض الإيضاح ورفع الإبهام من لفظ الآية. لا عقيدة بأنّها من النصّ القرآني، الأمر الذي لا بأس به مع التزام الشرط وعدم الالتباس.

وهكذا نجد زيادات تفسيريّة في المأثور عن الأئمّة الصادقين عليهم السلام.

ولـم نجد من زعم زيادة في النصّ الموجود سوى مـا يُحكى عن العجاردة (أصحاب عبـد الكريـم بن عجرد من زعماء الخـوارج) أنّهم أنكروا أن تكـون سورة يوسف من القـرآن، وكانـوا يرون أنّهـا قصّة عشق لا يجـوز أن تكون من الوحـي[4] ولهم مقالات فاسدة غير ذلك[5].

---

(1) سورة الزمر، الآية 28.

(2) الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج 4، ص 856، ح 1.

(3) راجع: تفسير البلاغي (آلاء الرحمن)، ج 2، ص 134.

(4) الملل والنحل للشهرستاني، ج 1، ص 128.

(5) راجع مقالات الإسلاميين، ج 1، ص 178.

نعـم كان ممّـا اشتبه على ابن مسعود زعمه من المعوّذتيـن أنّهما تعويذان وليستا من القرآن وكان يقول: لا تخلطوا بالقرآن ما ليس منه، وكان يحكّهما من المصحف[1].

6. **التحريف بالنقص:** إمّا بقراءة النقص، كما أثر عن ابن مسعود أنّه كان يقرأ: «والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلّى والذكر والأنثى» باسقاط «ما خلق»[2] وعن الأعمش أنّه كان يقرأ: «حم سق» بإسقاط «ع» قيل: وهكذا قرأ ابن عباس[3].

أو بزعـم أنّ فـي النصّ الحاضر سقطاً، كان عن القـرآن فأسقط إمّا عن عمد أو عن نسيان وهذا إمّا في حرف واحد أو كلمة أو جملة كاملة أو آية أو سورة كما زعم.

وكلّ ذلك ورد مأثوراً في أمّهات الكتب الحديثيّة كالصحاح الست وغيرهما.

الأمـر الذي ننكره أشدّ الإنكار وهو الذي وقع الكلام حوله في مسألة تحريف الكتاب. ولا مجـال لتغييـر العبارة والقـول بأنّه من منسوخ التـلاوة أو منسيّهـا ـ كما التزم به بعضـ أئمّة أهل السنّة فإنّه من الالتـواء في التعبير، وتغيير العنوان لا يغيّر من الواقع المعنون. وهو موضع بحثنا هنا.

ومجمـل القـول في ذلك: أنّ ما ورد بهذا الشأن من الروايـات العاميّة الإسناد لا تعدو كونها من اصطناع أهل الزنادقة ومن صنع الوضّاعين المعروفين بالكذب والاختلاق. أو أنّ لهـا تأويـلاً صحيحاً لا يمسّ جانـب تحريف الكتاب. وإلّا فهـي أوهام وخرافات سلفيّة لا اعتبار بشأنها أصلاً، والأكثر إنّما هو من هذا القبيل.

دلائلنا على دحض شبهة التحريف

1. بديهة العقل:

من بديهة العقل أنّ مثل القرآن الكريم يجب أن يسلم عن احتمال أيّ تغيير أو تبديل فيه، حيث إنّه كان الكتاب الذي وقع – من أوّل يومه – موضع عناية أمّة كبيرة واعية، ولا عجب فإنّه المرجع الأوّل لجميع شؤونهم في الحياة الدينيّة والسياسيّة والاجتماعيّة، فكان أساس الدين

(1) فتح الباري بشرح البخاري: ج 8، ص 571.
(2) صحيح البخاري، ج 6، ص 221، وج 5، ص 35.
(3) الطبرسي، مجمع البيان، ج 9، ص 21.

ومبنـى الشريعة وركن الإسلام. وهو المنبع الأصل لأمّهات مسائل فروع الدين وأصوله. ومن ثمّ كان الجميع في حراسته والمواظبة على سلامته وبقائه مع الخلود.

هكذا استدلّ الشريف المرتضى علم الهدى، والشيخ الكبير كاشف الغطاء.

قال شيـخ الفقهاء، الشيخ جعفر الكبير كاشف الغطاء: وما ورد من أخبار النقيصة تمنع البديهـة مـن العمل بظاهرها ولا سيّما ما فيه من نقص ثلث القرآن أو كثير منه. فإنّه لو كان ذلـك لتواتر نقلـه، لتوفّر الدواعي عليه ولاتّخذه غير أهل الإسـلام من أعظم المطاعن على الإسلام وأهله...

ثم قال: كيـف يكون ذلك وكانوا شديدي المحافظة على ضبط آياته وحروفه، وخصوصاً مـا ورد أنّـه صُـرّح فيـه بأسماء كثير مـن المنافقيـن؟ وكيف يمكـن ذلـك وكان من حكمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم الستر عليهم ومعاملتهم معاملة أهل الدين...؟[1]

وأخيـراً قال: يا للعجب من قوم يزعمون سلامـة الأحاديث وبقائها محفوظة، وهي دائرة علـى الألسن ومنقولة في الكتب، في مدّة ألف ومائتـي سنة، وأنّها لو حدث فيها نقص لظهر واستبان وشاع، لكنّهم يحكمون بنقص القرآن، وخفي ذلك في جميع الأزمان...[2].

2. ضرورة تواتر القرآن:

مـن الدلائـل ذوات الشـأن الداحضة لشبهة التحريـف هي مسألة «ضـرورة كون القرآن متواتـراً» فـي مجموعه وفي أبعاضه، في سـوره وآياته، حتّى في جملـه التركيبيّة وفي كلماته وحروفـه بل وحتى في قراءته وهجائه على مـا أسلفنا في بحث القراءات، وقلنا إنّ الصحيح مـن القراءات هـي القراءة المشهورة التي عليها جمهور المسلميـن وقد انطبقت على قراءة عاصم برواية حفص.

فـإنّ هذا ممّا يرفضـ احتمال التحريف نهائياً، لإنّ ما قيل بسقوطـه وأنّه كان قراناً يُتلى إنّما نُقل إلينا بخبر الواحد، وهو غير حجّة في هذا الباب، حتّى لو فُرض صحّة إسناده.

هكـذا استدلّ العلّامة الحلّي[3] وجماعة من المحقّقيـن كالسيد المجاهد محمد بن علي

(1) كشف الغطاء: كتاب القرآن من كتاب الصلاة، المبحث السابع والثامن، ص 298 ـ 299.

(2) عن كتابه «الحق المبين»، ص 11، ونقله القاضي الطباطبائي في هامش الأنوار، ج 2، ص 359.

(3) راجع: البرهان للبروجردي، ص 111.

الطباطبائي[1] والفقيه المحقّق المولى أحمد الأردبيلي[2] والمحقّق المتتبّع السيد محمد الجواد العاملي وغيرهم.

3. مسألة الإعجاز:

ممّا يتنافى واحتمال التحريف في كتاب الله هي مسألة الإعجاز المتحدّى به. وقد اعتبره العلماء من أكبر الدلائل على نفي التحريف.

أمّا احتمال الزيادة، كما احتمله أصحاب ابن العجرد من الخوارج، قالوا بزيادة سورة يوسف في القرآن، لأنّها قصّة عشق ولا يجوز أن تكون وحياً[3]. وكما زعمه ابن مسعود بشأن سورتي المعوذتين[4]، فهذا كلّه احتمال باطل، إذ يستدعي ذلك أن يكون باستطاعة البشريّة أن تقوم بإنشاء سورة كاملة تُماثل سور القرآن تماماً. وقد قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[5].

وقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾[6] وقال: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾[7]. وقال: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾[8].

فهذا التحدّي الصارخ يُبطل دعوى كلّ زيادة في سور القرآن وآياته الكريمة.

وكذا احتمال التبديل، فإنّ المتبدّل لا يكون من كلامه تعالى وإنّما هو من كلام مبدلِّه والكلام يسند إلى قائله إذا كان مجموع الكلمات مستندة إليه لا البعض دون البعض. إذن فاحتمال التبديل ولو في بعض كلمات القرآن يبطل إسناد مجموع الكتاب إليه سبحانه وتعالى.

---

(1) راجع: البرهان للبروجردي، ص 120 ـ 121.
(2) راجع: مجمع الفائدة، ج 2، ص 218.
(3) الملل والنحل للشهرستاني، ج 1، ص 128.
(4) ابن حجر، فتح الباري، ج 8، ص 571.
(5) سورة الإسراء، الآية 88.
(6) سورة هود، الآية 13.
(7) سورة يونس، الآية 38.
(8) سورة البقرة، الآية 23.

ومـن ذلك تعلـم فساد ما قيل في قولـه تعالـى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1] إنّها متبدّلة من «كُنْتُمْ خَيْرَ أئمَّة...»، كما زعمه الشيخ النوري والسيد الجزائري[2] وغيرهما.

وزعموا في كثير من كلمات قرآنيّة مثل ذلك وقالوا: ومثل هذا كثير[3].

كلّ ذلك باطل لأنّه ورد بخبر واحد وهو غير حجّة في باب القطعيات.

وهكذا التبديل الموضعي يخلّ بنظم الكلام المبتني على الإعجاز نظماً وأسلوباً...

قالـوا ـ في قوله تعالـى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾[4] ـ إنّهـا متغيّـرة من «ويتلوه شاهد منـه إماماً ورحمة ومن قبله كتاب موسى» قالوا: تقدّم حرف على حرف فذهب معنى الآية[5] حسب زعمهم.

ومثلـه النقص بإسقـاط كلمة أو كلمات ضمـن جملة واحدة، أنّهـا إذا كانت منتظمة في أسلـوب بلاغـي بديع، فـإنّ حذف كلمات منهـا سوف يـؤدّي إلى إخلال فـي نظمها ويذهب بروعتها الأولى ولا يدع مجالاً للتحدّي بها. الأمر الذي غفل عنه زاعمو التحريف.

زعمـوا إسقـاط اسم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من مواضع مـن القرآن[6]، ذهولاً عن أنّـه لو أثبتناه في تلـك المواضع لذهب عنها تلك الرّوعة الراهنة، في حين لا حاجة إلى ذكر الاسم، وإنّما هو بيان شأن النزول لا غير.

وأسخـف مزعومة زعمها هؤلاء هي سقط أكثر من ثلث القرآن ـ أي ما يزيد على ألفي آية ـ من خلال آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾[7]. زعمـوا عدم تناسبها مع ذيلها. فهناك زعموا سقطاً كثيراً فيما بين الجملتين[8].

---

(1) سورة آل عمران، الآية 110.

(2) السيد نعمة الله الجزائري، منبع الحياة في حجية قول المجتهدين من الأموات، ص 67.

(3) راجع: فيما نسبوه إلى النعماني، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 90، ص 26.

(4) سورة هود، الآية 17.

(5) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 90، ص 26 ـ 27.

(6) راجع: السيد نعمة الله الجزائري، منبع الحياة، ص 67.

(7) سورة النساء، الآية 3.

(8) الجزائري، منبع الحياة، ص 66.

وخلاصة القول: إنّ زعم التحريف سواء بالزّيادة أم النقص أم التبديل يتنافى وموضع القرآن البلاغي المعجز تنافياً بيّناً.

4. آية الحفظ:

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1]. هذه الآية الكريمة ضمنت بقاء القرآن وسلامته عن تطرّق الحدثان عبر الأجيال.

وهو ضمان إلهي لا يختلف ولا يتخلّف وعداً صادقاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[2].

وهذا هو مقتضى قاعدة اللطف: «يجب على الله تعالى – وفق حكمته في التكليف – فعل ما يوجب تقريب العباد إلى الطاعة وبعدهم عن المعصية». ولا شكّ أنّ القرآن هو عماد الإسلام وسنده الباقي بقاء الإسلام، وهو خاتمة الأديان السماويّة الباقية مع الخلود. الأمر الذي يستدعي بقاء أساسه ودعامته قويمة مستحكمة لا تتزعزع ولا تتثلم مع عواصف أحداث الزمان. وأجدر به أن لا يقع عرضة لتلاعب أهل البدع والأهواء، شأن كلّ سند وثيق يبقى، ليكون حجّة ثابتة مع مرّ الأجيال.

وهذا الضمان الإلهي هو أحد جوانب إعجاز هذا الكتاب، حيث بقاؤه سليماً على أيدي الناس وبين أظهرهم، وليس في السماء في البيت المعمور في حقائب مخبوءة وراء الستور. ليس هذا إعجازاً إنما الإعجاز هو حفظه وحراسته في معرض عام وعلى ملأ الأشهاد.

فمن سفه القول ما عساه يقول أهل التحريف: «إنّه تعالى يحفظ القرآن في المواضع الذي أنزله فيه. كما كان محفوظاً في المحلّ الأعلى قبل نزوله. والقرآن إنّما نزل به جبرئيل على قلب سيّد المرسلين ليكون من المنذرين، فمحلّه الذي أنزله تعالى فيه ووعده حفظه، هو قلبه الشريف، لا الصحف والدفاتر ولا غير صدره ﷺ من الضمائر...»[3].

(1) سورة الحجر، الآية 9.
(2) سورة الرعد، الآية 31.
(3) راجع: الشيخ النوري، فصل الخطاب، ص 360.

هـذا. وقد ذكـر أهل التفسيـر ـ بشأن نزول الآيـة ـ أنّه ﷺ إنّما كان يخشـى تلاعب أهل الأهواء بالقرآن من بعده، كما فعلوا بكتب الأنبياء السالفين. فنزلت الآية تُطمئنه على حفظه وحراسته عن تناوش الأعداء خلوداً مع الأبد[1] وقرينة السياق أيضاً شاهدة على هذا المعنى.

5. نفي الباطل عنه:

قـال تعالـى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[2].

هـذه الآية أصرح دلالة من الآية الأولى، فقد وعد تعالى صيانته من الضياع وسلامته من حوادث الأزمان، مصوناً محفوظاً يشقّ طريقه إلى الأمام بسلام.

قوله: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾، الباطل: الفاسد الضائع: أي لا يعرضه فسـاد أو نقص لا في حاضـره ولا في مستقبل الأيّام. وذلك لأنّه ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ﴾ لدن ﴿حَكِيمٍ﴾، وأنّ حكمتـه تعالى لتبعث على ضمـان حفظه وحراسته مع أبديّة الإسلام. ﴿حَمِيدٍ﴾، من كان محموداً على فعاله فلا يخلف الميعاد.

وقـد اعتـرف الخصم بأنّ مطلـق التغيير في القرآن يُعـدّ باطلاً وتنافياً مـع ظاهر الآية الكريمـة. سوى أنّ المقصود غير هـذا المعنى! قال: لأن المقصود هو البطلان الحاصل من تناقض أحكامه وتكاذب أخباره[3].

قُلـت: لعلّه لـم يتنبّه لموضع قوله تعالـى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾. والباطل الـذي يُمكن إتيانه للكتاب هو تناول يد المحرّفين ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾[4].

أمّـا التناقض والتكاذب فـي أحكامه وإخباراته فهو من الباطل المنبعث من الداخل، وقد نفاه تعالى أيضاً بقوله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[5].

ومـن ثـمّ أطبق المفسِّرون علـى أنّ آية نفي الباطل هي من أصـرح الآيات دلالة على نفي احتمال التحريف من الكتاب فلا تناله يد مغيّر أبداً.

---

(1) وقد أشار إليه المحدث النوري في فصل الخطاب، ص 361.
(2) سورة فصّلت، الآيتان 41 و 42.
(3) الشيخ النوري، فصل الخطاب، ص 361.
(4) سورة الحجر، الآية 91.
(5) سورة النساء، الآية 82.

المفاهيم الرئيسة

- للتحريف عدّة وجوه:

تحريف بمدلول الكلام ، تحريف قرائي، تحريف في لهجة التعبير، تحريف بتبديل الكلم، التحريف بالزيادة، التحريف بالنقص.

- إنّ ما ورد بشأن تحريف القرآن من الروايات العاميّة الإسناد لا تعدو كونها من اصطناع أهل الزنادقة ومن صنع الوضّاعين المعروفين بالكذب والاختلاق. أو أنّ لها تأويلاً صحيحاً لا يمسّ جانب تحريف الكتاب. وإلّا فهي أوهام وخرافات سلفيّة لا اعتبار بشأنها أصلاً، والأكثر إنّما هو من هذا القبيل.

- الدلائل على دحض شبهة التحريف:

1. بديهة العقل.
2. ضرورة تواتر القرآن.
3. مسألة الإعجاز.
4. آية الحفظ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾.
5. نفي الباطل عنه: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾.

للمطالعة

العرض على كتاب الله

روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ على كلّ حقيقة وعلى كلّ صواب نوراً، فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه**»[1].

الأمر الذي يتنافى تماماً مع احتمال التحريف في كتاب الله، وذلك من جهتين:

الجهة الأولى: أنّ المعروض عليه يجب أن يكون مقطوعاً به، لأنّه المقياس الفارق بين الحقّ والباطل ولا موضع للشكّ في نفس المقياس.

إذن فلو عرضت روايات التحريف على نفس ما قيل بسقوطه لتكون موافقة له، فهذا عرض على المقياس المشكوك فيه، وهو دور باطل. وإن عرضت على غيره فهي تُخالفه، قال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾[2] وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[3].

الجهة الثانية: إنّ العرض لا بدّ أن يكون على هذا الموجود المتواتر لدى عامّة المسلمين لما ذكرناه – في الجهة الأولى – من أنّ المقياس لا بدّ أن يكون متواتراً مقطوعاً به. وروايات التحريف إذا عرضت على هذا الموجود بأيدينا كانت مخالفة له، لأنّها تنفي سلامة هذا الموجود وتدلّ على أنّه ليس ذلك الكتاب النازل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهذا تكذيب صريح للكتاب ومخالفة عارمة مع القرآن.

هكذا استدلّ المحقّق الثاني (الكَرَكي)[4] والسيد محمد مهدي الطباطبائي (بحر العلوم)[5].

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج 1، ص 69، باب الأخذ بالسنة وشواهد الكتاب.
(2) سورة فصّلت، الآية 42.
(3) سورة الحجر، الآية 9.
(4) بنقل السيد شارح الوافيه، أنظر: البرهان للبروجردي، ص 116 ـ 117.
(5) بنقل البروجردي في البرهان، ص 118 ـ 120.

لكـن زعم المحدّث النـوري أن لا منافاة بين أخبار العرض ووقـوع التحريف في القرآن: فـإنّ الأمر بالعرضـ على كتاب الله صدر مـن رسول الله ﷺ حال حياته أمّـا وقوع السقط والتبديل فإنّما حصل بعد وفاته[1].

وهـذا كلام غريب، إذ أحاديث العرض لا يختصّ صدورها عن الرسول ﷺ بل نطق بها - دستوراً عامّاً - الأئمة المعصومون بعده أيضاً.

ثمّ إنّ النبي ﷺ قال ذلك خشية وفور الكذّابة بعده، فبيّن للأمّة على طول الدهر معياراً يقيسون عليه السليم من السقيم من أحاديثه المنسوبة إليه، وليس علاجاً موقّتاً خاصاً بحال حياته صلوات الله عليه.

(1) راجع: الشيخ النوري، فصل الخطاب، ص 362 ـ 363.

المحور الثالث

دروس في التفسير

الدرس الثالث عشر

تفسير سورة الفاتحة (1)

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يتعرّف على خصائص سورة الفاتحة.

2 . يفهم معاني آيات السورة إجمالاً.

3 . يشرح معاني مفردات؛ الحمد، الرحمن الرحيم، الرب.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

خصائص سورة الفاتحة

لهـذه السّورة مكانة متميّزة بيـن سور القرآن الكريم. وتبدأ هـذه السّورة - بعد البسملة - بحمـد الله والثناء عليـه، وتستمرّ في إقرار الإيمان بالمبدأ والمعـاد «بالله ويوم القيامة»، وبحصـر العبادة والاستعانة بالله تعالى، وتنتهي بالتضـرّع والطلب للهداية، والتبرّؤ من أهل الضلالة والغواية..

سـورة الحمـد أسـاس القـرآن: فقد رويَ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قـال لجابر بن عبد الله الأنصاري: «**ألا أُعَلّمُكَ أفْضَـلَ سُـورَة أنْزَلَهَا الله في كتَابه؟ قَال جَابرُ: بَلى بأبي أنْتَ وَأُمّي يَا رَسُـولَ الله، عَلِّمْنيهَا. فَعَلَّمَهُ الْحَمْدَ أُمَّ الْكتَاب، وَقَالَ: «هي شـفَاءٌ منْ كُلِّ دَاء، إلاّ السَّـامَ، وَالسَّامُ الْمَوْتُ**»[1].

أمّ الكتاب: وروي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً أنّه قَالَ: «**وَالّذي نَفْسي بيَده مَا أَنْزَلَ الله في التَّوْرَاة، وَلا في الإنجيل ولا في الزّبُور وَلا في الْقُرْآن مثْلَهَا، وَهيَ أُمُّ الْكتَاب**»[2].

(1) الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج 6، ص 232.

(2) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج4، ص332.

أهمّيّتها

أهمّيّـة هذه السّورة تتّضح من محتواها، فهي في الحقيقـة عرض لكلّ محتويات القرآن، فجانـب منها يختصّ بالتوحيد وصفات الله، وجانب آخـر بالمعاد ويوم القيامة، وقسم منها يتحدّث عـن الهداية والضلال باعتبارهما علامة التمييز بيـن المؤمن والكافر، وفيها أيضاً إشـارات إلى حاكمية الله المطلقة، وإلى مقام ربوبيّته، ونعمـه اللّامتناهية العامّة والخاصّة «الرحمانية والرحيمية»، وإلى مسألة العبادة والعبوديّة واختصاصهما بذات الله دون سواه.

إنّها تتضمّن في الواقع توحيد الذّات، وتوحيد الصفات، وتوحيد الأفعال، وتوحيد العبادة.

وبعبـارة أخرى: تتضمّـن هذه السّورة مراحل الإيمان الثـلاث: الاعتقاد بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان. ومن المعلوم أنّ لفظ «الأُمّ» يعني هنا الأساس والجذر.

محتوى السّورة

ويُمكن تقسيم هذه السّورة، من منظار آخر، إلى قسمين: قسم يختصّ بحمد الله والثناء عليه، وقسم يتضمّن حاجات العبد.

وإلى هذا التقسيم يُشير الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ:

«قَـالَ اللهُ عـزّ وجـلّ: قَسَـمْتُ فَاتِحَـةَ الْكِتَـابِ بَيْنِي وَبَيْـنَ عَبْدِي، فَنِصْـفُهَا لِي وَنِصْـفُهَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ.

إِذَا قَـالَ الْعَبْـدُ: ﴿بِسْـمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ قَالَ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ: بَدَأَ عَبدِي بِاسْـمِي وَحَقٌّ عَلَيَّ أَنْ أُتَمِّمَ لَهُ أُمُورَهُ وَأُبَارِكَ لَهُ فِي أَحوَالِه.

فَـإِذَا قَـالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قَـالَ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ: حَمِدَنِي عَبْـدِي وَعَلِمَ أَنَّ النِّعَمَ الَّتِي لَهُ مِنْ عِنْدِي، وَأَنَّ الْبَلَايَا الَّتِي دَفَعْتُ عَنْهُ فَبِتَطَوُّلِي، أُشْهِدُكُمْ أَنِّي أُضِيفُ لَهُ إِلَى نِعَمِ الدُّنْيَا نِعَمَ الآخِرَةِ، وَأَدْفَعُ عَنْهُ بَلَايَا الآخِرَةِ كَمَا دَفَعْتُ عَنْهُ بَلَايَا الدُّنْيَا.

وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ قَالَ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ: شَـهِدَ لِي عَبْدِي أَنِّي الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ، أُشْهِدُكُمْ لأُوَفِّرَنَّ مِنْ رَحْمَتِي حَظَّهُ وَلأُجْزِلَنَّ مِنْ عَطَائِي نَصِيبَهُ.

فَـإِذَا قَـالَ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى: أُشْـهِدُكُمْ كَمَا اعْتَرَفَ بِأَنِّـي أَنَا مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ لأُسَهِّلَنَّ يَوْمَ الْحِسَابِ حِسَابَهُ، وَلأَتَقَبَّلَنَّ حَسَنَاتِه، وَلأَتَجَاوَزَنَّ عَنْ سَيِّئَاتِه.

فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قَالَ اللهُ عزّ وجلّ: صَدَقَ عَبْدي، إِيَّايَ يَعْبُدُ أُشْهِدُكُمْ لأُثيبَنَّهُ عَلَى عِبَادَتِه ثَوَاباً يَغْبِطُهُ كُلُّ مَنْ خَالَفَهُ في عِبَادَتِه لي.

فَإِذَا قَالَ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى: بِيَ اسْتَعَانَ عَبْدي، وَإِلَيَّ الْتَجَأَ، أُشْهِدُكُمْ لأُعِينَنَّهُ عَلَى أَمْرِه، ولأُغِيثَنَّهُ في شَدَائِدِه وَلآخُذَنَّ بِيَدِه يَوْمَ نَوَائِبِه.

فَإِذَا قَالَ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ قَالَ اللهُ عزّ وجلّ: هَذَا لِعَبْدي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ وَقَدِ اسْتَجَبْتُ لِعَبْدِي وَأَعْطَيْتُهُ مَا أَمَّلَ وَآمَنْتُهُ مِمَّا مِنْهُ وَجِلَ»[1].

في رحاب سورة الفاتحة

1. بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

دأبت الأمم والشّعوب على أن تبدأ كلّ عمل هامّ ذي قيمة باسم كبير من رجالها. والحجر الأساس لكلّ مؤسّسة هامّة يوضع باسم شخصيّة مرموقة في نظر أصحابها، أي أنّ أصحاب المؤسّسة يبدؤون العمل باسم تلك الشّخصيّة.

ولكن، أليس من الأفضل أن يبدأ العمل في أُطروحة أُريد لها البقاء والخلود باسم وجود خالد قائم لا يعتريه الفناء؟ فكلّ ما في الكون يتّجه إلى الزّوال والفناء، إلّا الذّات الأبديّة الخالدة... ذات الله سبحانه.

إنّ خلود ذكر الأنبياء سببه ارتباطهم بالله وبالقيم الإنسانيّة الإلهيّة الخالدة كالعدالة وطلب الحقيقة، وخلود اسم رجل في التّاريخ مثل «حاتم الطّائيّ» يعود إلى ارتباطه بواحدة من تلك القيم هي «السّخاء».

صفة الخلود والأبديّة يختصّ بها الله تعالى من بين سائر الموجودات، ومن هنا ينبغي أن يُبدأ كلّ شيء باسمه وتحت ظلّه وبالاستمداد منه. ولذلك كانت البسملة أوّل آية في القرآن الكريم.

ولذلك جاء في الحديث النّبويّ الشريف: «**كُلُّ أَمْرٍ ذي بَالٍ لا يُذْكَرُ اسْمُ اللهِ فيه فَهُوَ أَبْتَرُ**»[2].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام بعد نقله لهذا الحديث الشريف: «**إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْرَأَ أَوْ يَعْمَلَ عَمَلاً فَيَقُولُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ فَإِنَّهُ يُبَارَكُ فيه**»[3].

---

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج82، ص60.

(2) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 7، ص 170.

(3) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج89، ص243.

وعن الإمام محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام:
«... **وَيَنْبَغي الإتيان به عنْدَ افْتتَاح كُلِّ أَمْر عَظيم أَوْ صَغير ليُبَارَكَ فيه**»[1].
بعبارة موجزة: بقاء العمل وخلوده يتوقّف على ارتباطه باللّه.

2. كلمة: اللّه

وهي عَلَم للذّات الإلهيّة المقدّسة وهي أشمل أسماء ربّ العالمين، فكلّ اسم ورد للّه في القرآن الكريم وسائر المصادر الإسلاميّة يُشير إلى جانب معيّن من صفات اللّه. والاسم الوحيد الجامع لكلّ الصفات والكمالات الإلهيّة أو الجامع لكلّ صفات الجلال والجمال هو «اللّه».
ولذلك اعتُبرت بقيّة الأسماء صفات للّه تعالى مثل: «الغفور» و«الرحيم» و«السميع» و«العليم» و«البصير» و«الرزّاق» و«ذو القوّة» و«المتين» و«الخالق».

3. الرّحمة الإلهيّة الخاصّة والعامّة

المشهور بين جماعة من المفسّرين أنّ صفة «الرحمن» تُشير إلى الرحمة الإلهيّة العامّة، وهي تشمل الأولياء والأعداء، والمؤمنين والكافرين، والمحسنين والمسيئين، فرحمته تعمّ المخلوقات، وخوان فضله ممدود أمام جميع الموجودات، وكلّ العباد يتمتّعون بموهبة الحياة، وينالون حظّهم من مائدة نعمه اللّامتناهية. وهذه هي رحمته العامّة الشاملة لعالم الوجود كافّة وما فيه من كائنات.

وصفة «الرحيم» إشارة إلى رحمته الخاصّة بعباده الصالحين المطيعين، قد شملتهم بإيمانهم وعملهم الصالح، وَحُرِم منها المنحرفون والمجرمون.

وفي رواية عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قَالَ: «**وَاللّه إلهُ كُلِّ شَيْء الرَّحْمنُ بجَميع خَلْقه، الرَّحيمُ بالْمُؤْمنينَ خَاصَّةً**»[2].

4. الْحَمْدُ للّه رَبِّ الْعَالَمينَ

بعد البسملة، أوّل واجبات العباد أن يستحضروا دوماً مبدأ عالم الوجود، ونِعَمه اللامتناهية، هذه النِّعم الّتي تُحيطنا وتغمر وجودنا، وتهدينا إلى معرفة اللّه من جهة،

(1) الفيض الكاشاني، التفسير الصافي، ج1، ص82.
(2) الكليني، الكافي، ج1، ص114.

وتدفعنا إلى طريق العبوديّة من جهة أخرى.

وعندما نقول إنّ النِّعم تُشكِّل دافعاً ومحرِّكاً إلى طريق العبوديّة فذلك، لأنّ الإنسان مفطور على البحث عن صاحب النعمة حينما تصله النعمة، ومفطور على أن يشكر المنعم على إنعامه.

من هنا فإنّ علماء الكلام (علماء العقائد) يتطرّقون في بحوثهم الأوّلية لهذا العلم إلى «وجوب شكر المنعم» باعتباره أمراً فطريّاً وعقليّاً دافعاً إلى معرفة الله سبحانه.

وإنّما قُلنا إنّ النِّعم تهدينا إلى معرفة الله، لأنّ أفضل طريق وأشمل سبيل لمعرفته سبحانه، دراسة أسرار الخليقة، وخاصّة ما يرتبط بوجود النِّعم في حياة الإنسان.

خطّ التوحيد الّذي دعا إليه الأنبياء عليهم السلام يتميّز بنبذ فكرة الأرباب المتعدِّدين، وهداية البشريّة نحو الإله الواحد الأحد، وانطلاقاً من هذه الأهميّة القصوى للقضاء على الآلهة المتعدِّدة جاء التأكيد القرآنيّ بعد آية البسملة بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وبهذا يرسم القرآن الكريم خطّ البطلان على جميع الأرباب المزيّفين، ويغرس محلّها أزهار التوحيد والاتّحاد.

هذا التأكيد يتلوه الإنسان المسلم عشر مرّات في صلواته اليوميّة – على الأقل – لتترسّخ فكرة التوحيد، وفكرة رفض ربوبيّة كلّ الأرباب المدّعاة، غير ربوبيّة الله ربّ العالمين.

ربوبيّة الله طريق لمعرفة الله.

كلمة (الربّ)، وإن كانت تعني في الأصل المالك والصاحب، إلّا أنّها تتضمّن أيضاً معنى الصاحب المتعهّد بالتربية والرعاية.

وإمعان النظر في المسيرة التكامليّة للموجودات الحيّة، وفي التغييرات والتحوّلات الّتي تجري في عالم الجماد، وفي الظروف الّتي تتوفّر لتربية الموجودات، وفي تفاصيل هذه الحركات والعمليّات، هو أفضل طريق لمعرفة الله. والتنسيق اللاإراديّ بين أعضاء جسدنا هو نموذج حيّ لذلك.

يقول تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[1].

(1) سورة فصّلت، الآية 53.

المفاهيم الرئيسة

- من خصائص سورة الحمد أنّها أساس القرآن وأمّ الكتاب.
- أهمّيّة هذه السّورة تتّضح من محتواها، فهي في الحقيقة عرض لكلّ محتويات القرآن من توحيد ومعاد وهداية وضلال.
- تتضمّن هذه السّورة مراحل الإيمان الثلاث: الاعتقاد بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان. ويُمكن تقسيم هذه السّورة، من منظار آخر، إلى قسمين: قسم يختصّ بحمد الله والثناء عليه، وقسم يتضمّن حاجات العبد.

الدرس الرابع عشر

تفسير سورة الفاتحة (2)

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يعرف معنى: إيّاك نعبد وإيّاك نستعين.

2 . يفهم صفات أهل الهدى وأهل الضلال.

3 . يشرح صفات المغضوب عليهم.

1. مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ

هـذه الآية تُلفت الأنظار إلـى أصل هامّ آخر من أصول الإسلام، هو يوم القيامة: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾، وبذلـك يكتمل محور المبـدأ والمعاد، الّذي يُعتبر أساس كلّ إصلاح أخلاقيّ واجتماعيّ في وجود الإنسان.

تعبيـر ﴿ مَٰلِكِ ﴾ يوحي بسيطرة اللّه التامّة وهيمنتـه المستحكمة على كلّ شيء وعلى كلّ فـرد في ذلـك اليوم، حيث تحضـر البشريّة في تلـك المحكمة الكبرى، وتقـف أمام مالكها الحقيقيّ للحساب، وترى كلّ ما فعلته وقالته، بل وحتّى ما فكّرت به، حاضراً..

الإيمان بيوم القيامة، وبتلك المحكمة الإلهيّة الكبرى الّتي يخضع فيها كلّ شيء للإحصاء الدقيق، له الأثر الكبير في ضبط الإنسان أمام الزلّات، ووقايته من السقوط في المنحدرات. وأحد أسباب قدرة الصلاة على النهي عن الفحشاء والمنكر هو أنّها تُذكّر الإنسان بالمُبدئ المطّلع على حركاته وسكناته، وتُذكّره أيضاً بمحكمة العدل الإلهيّ الكبرى.

التركيز على مالكيّة اللّه ليوم القيامة يُقارع من جهة أُخرى معتقدات المشركين ومنكري المعـاد، لأنّ الإيمـان باللّه عقيدة فطريّة عامّـة، حتّى لدى مشركي العصـر الجاهليّ، وهذا مـا يُوضّحه القرآن إذ يقـول: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ ﴾[1] بينمـا الإيمـان بالمعاد ليس كذلـك، فهؤلاء المشركـون كانوا يواجهون مسألـة المعاد بعناد واستهـزاء ولجـاج: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ۝٧ أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۚ ﴾[2].

---

(1) سورة الزمر، الآية 38.

(2) سورة سبأ، الآيتان 7 و 8.

وروي عن الإمام عليّ بن الحسين السجّاد عليه السلام: «أنّه كان إذا قرأ ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ **يُكَرِّرُهَا حَتَّى يَكَادَ أَنْ يَمُوتَ**»[1].

أمّا تعبير ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، فحيثما ورد في القرآن يعني يوم القيامة، وتكرّر ذلك في أكثر من عشرة مواضع من كتاب الله العزيز، وفي الآيات 17 و18 و19 من سورة الانفطار ورد هذا المعنى بصراحة.

وأمّا سبب تسمية هذا اليوم بيوم الدِّين، فلأنّ يوم القيامة يوم الجزاء، و«الدِّين» في اللغة «الجزاء»، والجزاء أبرز مظاهر القيامة، ففي ذلك اليوم تُكشف السرائر ويُحاسب النّاس عمّا فعلوه بدقّة، ويرى كلّ فرد جزاء ما عمله صالحاً أم طالحاً.

وفي حديث عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام يقول: «يَوْمُ الدِّينِ هُوَ يَوْمُ الْحِسَابِ»[2]، «**والدِّين**» استناداً إلى هذه الرواية يعني «الحساب».

2. ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾

في هذه الآية يتغيّر لحن السّورة، إذ يبدأ فيها دعاء العبد لربّه والتضرّع إليه. الآيات السابقة دارت حول حمد الله والثناء عليه، والإقرار بالإيمان والاعتراف بيوم القيامة. وفي هذه الآية يشعر الإنسان - بعد رسوخ أساس العقيدة ومعرفة الله في نفسه - بحضوره بين يدي الله... يُخاطبه ويُناجيه، ويُقرّ أوّلاً بتعبّده، ثمّ يستمدّ العون منه وحده دون سواه: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

بعبارة أخرى: عندما تتعمّق مفاهيم الآيات السابقة في وجود الإنسان، وتتنوّر روحه بنور ربّ العالمين، ويُدرك رحمة الله العامّة والخاصّة، ومالكيّته ليوم الجزاء، يكتمل الإنسان في جانبه العقائديّ. وهذه العقيدة التوحيديّة العميقة، ذات عطاء يتمثّل.

أوّلاً: في تربية الإنسان العبد الخالص لله، المتحرّر من العبوديّة للآلهة الخشبيّة والبشريّة والشهويّة.

ثانياً: في الاستمداد من ذات الله تبارك وتعالى خاصّة دون غيره.

(1) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج6، ص152.

(2) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام، ص38.

الآيـات السابقة تحدّثت في الحقيقة عن توحيد الذّات والصِّفات، وهذه الآية تتحدّث عن توحيد العبادة وتوحيد الأفعال.

ومعنــى هذا التوحيد أنّ اللّه هو المؤثّر الحقيقيّ في العالم (لاَ مُؤَثِّرَ فِي الْوُجُود إلاَّ اللّه). وهــذا لا يعني إنكار عالم الأسباب، وتجاهل المسبّبات، بل يعنــي الإيمان بأنّ تأثير الأسباب إنّمـا كان بأمر اللّه، فاللّه سبحانـه هو الّذي يمنح النار خاصّيّة الإحـراق، والشّمس خاصّيّة الإنارة، والماء خاصّيّة الإحياء.

ثمـرة هــذا الاعتقاد أنّ الإنسان يُصبــح معتمداً على (اللّه) دون ســواه، ويرى أنّ اللّه هو القــادر العظيــم فقط، ويرى مــا سواه شبحاً لا حول له ولا قوّة بل لا يــرى شيئاً غير اللّه، وهو وحده سبحانه اللائق بالاتّكال والاعتماد عليه في كلّ الأمور.

وبالتّالي هو الواحد الّذي يستحقّ العبادة فلا معبود سواه.

3. ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ

بعــد أن يُقرّ الإنســان بالتسليم لربّ العالمين، ويرتفع إلى مستوى العبوديّة للّه والاستعانة بــه تعالى، يتقدّم هذا العبد بــأوّل طلب من بارئه، وهو الهداية إلى الطريق المستقيم، طريق الطّهــر والخيــر، طريق العــدل والإحسان، طريق الإيمــان والعمل الصالــح، ليهبه اللّه نعمة الهداية كما وهبه جميع النِّعم الأخرى.

الإنســان في هــذه المرحلة مؤمن طبعاً وعــارف بربّه، لكنّه معرّض دومــاً بسبب العوامل المضــادّة إلى سلب هذه النعمة والانحراف عن الصراط المستقيم. من هنا كان عليه لزاماً أن يُكرِّر عشر مرّات في اليوم على الأقلّ طلبه من اللّه أن يقيه العثرات والانحرافات.

أضف إلى ما تقدّم أنّ الصراط المستقيم هو دين اللّه، وله مراتب ودرجات لا يستوي في طيّها جميــع النّاس، ومهما سما الإنسان في مراتبه، فثمّــة مراتب أخرى أبعد وأرقى، والإنسان المؤمن توّاق دوماً إلى السير الحثيث على هذا السلّم الارتقائيّ، وعليه أن يستمدّ العون من اللّه في ذلك.

عــن الإمام أميــر المؤمنين عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، في تفسيــر: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ قال: أي: **«أَدِمْ لَنَـا تَوْفِيقَـكَ الَّـذِي أَطَعْنَـاكَ بِـهِ فِي مَا مَضَــى مِنْ أَيَّامِنَـا، حَتَّى نُطِيعَكَ فِي مُسْـتَقْبَلِ أَعْمَارِنَا»**[1].

(1) الشيخ الصدوق، معاني الأخبار، ص 33.

وعن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام: **«يَعْني أَرْشِدْنا للزُوم الطَّريق الْمُؤَدّي إلى مَحَبَّتك، وَالْمُبلِّغ إلى جنّتك، وَالْمَانع منْ أَنْ نَتّبع أَهْواءَنَا فَنَعْطَب، أو أنْ نَأْخُذَ بآرَائنا فَنَهْلَك»**[1].

4. ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾

خطّان منحرفان!

هذه الآية تفسير واضح للصراط المستقيم المذكور في الآية السابقة، إنّه صراط المشمولين بأنواع النِّعم (مثل نعمة الهداية، ونعمة التوفيق، ونعمة القيادة الصالحة، ونعمة العلم والعمل والجهاد والشهادة) لا المشمولين بالغضب الإلهيّ بسبب سوء فعالهم وزيغ قلوبهم، ولا الضائعين التائهين عن جادّة الحقّ والهدى.

ولأنّنا لسنا على معرفة تامّة بمعالم طريق الهداية، فإنّ الله تعالى يأمرنا في هذه الآية الكريمة أن نطلب منه هدايتنا إلى طريق الأنبياء والصالحين من عباده: ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، ويُحذِّرنا كذلك من أنّ أمامنا طريقين منحرفين، وهما طريق ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾، وطريق: ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾، وبذلك يتبيّن للإنسان طريق الهداية بوضوح.

1. من هم ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾؟

تُبيّن الآية الكريمة من سورة النساء من هم الّذين أنعم الله عليهم، إذ يقول تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾[2].

والآية تُقسِّم الّذين أنعم الله عليهم إلى أربعة مجاميع: الأنبياء، والصدّيقين، والشهداء، والصالحين.

2. من هم ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾، ومن هم ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾؟

يتّضح من الآية الكريمة أنّ ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ و ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ مجموعتان لا مجموعة واحدة، وأمّا الفرق بينهما:

(1) م. س، ص 34.

(2) سورة النساء، الآية 69.

فإنّـه يُستفاد من استعمال التعبيرين في القرآن أنّ «**المغضـوب عليهـم**» أسوأ وأحطّ من «**الضّـالّين**»، أي إنّ الضّاليـن هـم التائهـون العاديّـون، والمغضوب عليهم هـم المنحرفون المعاندون، أو المنافقون، ولذلك استحقّوا لعن الله وغضبه.

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[1].

وقـال سبحانـه: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ﴾[2].

﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ إذاً يسلكـون - إضافـة إلى كفرهم - طريق اللّجاج والعناد ومعاداة الحقّ، ولا يألون جهداً في توجيه ألوان التنكيل والتعذيب لقادة الدعوة الإلهيّة.

يقول سبحانه: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾[3].

(1) سورة النحل، الآية 106.
(2) سورة الفتح، الآية 6.
(3) سورة البقرة، الآية 61.

المفاهيم الرئيسة

فـي هذه السـورة المباركة يكـون الإنسان بيـن يدي الله، فهـو مالك يوم الدِّيـن أي يوم الحساب، يُخاطبه ويُناجيه، يتحدّث إليه أوّلاً عن تعبّده، ثمّ يستمدّ العون منه وحده دون سواه قائلاً: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ويسألـه الهدايـة: اهْدِنَـا الصِّـرَاطَ الْمُستَقِيمَ؛ أي طريـق الطّهر والخيـر، طريق العدل والإحسـان، طريق الإيمان والعمل الصالح، الّذي هو طريق الأنبياء والصالحين من عباده لا طريق المغضوب عليهم والضالّين.

الدرس الخامس عشر

تفسير سورة الضحى

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يعرف سبب نزول سورة الضحى.

2 . يشرح معاني مفردات سورة تفسير.

3 . يفهم فلسفة شكر الله على نعمائه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

في رحاب السّورة

هـذه السّـورة نزلت في مكّـة. وحسب بعض الرّوايـات أنّها نزلت حيـن كان الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم متألّمـاً بسبب تأخّر نزول الوحي، وتقـوُّل الأعداء نتيجة هذا الانقطاع المؤقّت، نزلت السّورة كغيث على قلب النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وأمدّته بطاقة جديدة، وقطعت ألسن الأعداء.

هذه السّورة تبدأ بقَسَمَين، ثمّ تُبشِّر النّبيّ بأنّ الله لا يتركه أبداً.

ثمّ تُبشّره بعطاء ربّانيّ يجعله راضياً، ثمّ تعرض له صوراً من حياته السابقة تتجسّد فيها الرحمة الإلهيّة الّتي كانت تشمله دائماً وتحميه وتسنده في أشدّ اللحظات.

وفـي نهاية السّورة تتكـرّر الأوامر الإلهيّة برعاية اليتيم والسائـل، وبإظهار النِّعم الإلهيّة (شكراً لهذه النِّعم).

سبب النّزول

روِيَ عن ابن عبّاس قال: «**احتبس الوحي عن رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم خمسـة عشـر يوماً، فقال المشـركون إنّ محمّـداً قـد ودّعـه ربّـه وقـلاه، ولـو كان أمره مـن الله تعالى لتتابـع عليه، فنزلت السّورة**»[1].

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 16، ص 136.

التّفسير

في بداية السّورة المباركة قسَمان: الأوّل بالنّور، والثّاني بالظلمة، ويقول سبحانه:

﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ وهو أوّل النهار حين تغمر شمسه كلّ مكان.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ أي إذا عمّت سكينته كلّ مكان.

وبيـن القَسَمين ومحتـوى السّورة تشابه كبير وارتباط وثيق. النهـار مثل نزول نور الوحي علـى قلب النّبيّ ﷺ، والليل كانقطاع الوحي المؤقّـت، وهو أيضاً ضروريّ في بعض المقاطع الزمنيّة.

وبعد القَسَمين، يأتي جواب القَسَم، فيقول سبحانه: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.

«**قلـى**» مـن «**قلا**» ـ على وزن صدا، وهو شدّة البغض، ومن القَلو أيضاً بمعنى الرّمي. وكلا المعنيين يعودان إلى أصل واحد فكأنّ المقلوّ هو الّذي يقذفه القلب من بُغضه فلا يَقبَلُه.

علـى أيّ حال، في هذا التعبير سَكَنٌ لقلب النّبيّ ﷺ وتسلٍّ له، ليعلم أنّ التأخير في نزول الوحـي إنّما يحدث لمصلحـة يعلمها الله تعالى، وليست ـ كما يقول الأعـداء ـ لترك الله نبيّه أو لسخطـه عليه. فهو مشمولٌ دائماً بلطـف الله وعنايته الخاصّة، وهو دائماً في كنف حماية الله سبحانه.

﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾.

أنـت فـي هذه الدنيا مشمول بألطاف الله تعالى، وفي الآخـرة أكثر وأفضل. أنت آمن من غضـب الله في الأمـد القريب والبعيد. وباختصار أنت عزيز في الدنيا والآخرة... في الدنيا عزيز وفي الآخرة أعزّ...

وتأتي البشرى للنبيّ الكريم ﷺ لتقول له:

﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾، وهـذا أعظـم إكرام وأسمى احترام مـن ربّ العالمين لعبـده المصطفـى محمّد ﷺ. فالعطاء الرّبانـيّ سيُغدق عليه حتّى يرضـى... حتّى ينتصر علـى الأعداء ويعمّ نور الإسلام الخافقين، كما أنّه سيكـون في الآخرة أيضاً مشمولاً بأعظم الهبات الإلهيّة.

فلسفة انقطاع الوحي

يتبيّـن من الآيـات الكريمة في هذه السّورة أنّ النّبيّ ﷺ لا يملك لنفسه شيئاً إلاّ من عند اللّه... لـم يكـن له اختيار حتّى في نزول الوحي. متى ما شـاء اللّه ينزل الوحي ومتى ما شاء ينقطـع. ولعلّ انقطاع الوحي كان ردّاً على أولئك الّذين كانوا يُطالبون النبيّ بمعاجز مقترحة وفـق أذواقهم، أو كانوا يقترحون عليه تغيير بعض الأحكام والنصوص، وكان ﷺ يقول لهم: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ...﴾[1].

الشكر على كلّ هذه النِّعم الإلهيّة

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

ذكرنا أنّ هدف هذه السّورة المباركة تسلية قلب النّبيّ ﷺ وبيان ألطاف اللّه الّتي شملته. وهذه الآيات المذكورة أعلاه تُجسّد للنّبي ثلاث هبات من الهبات الخاصّة الّتي أنعم اللّه بها على النّبيّ، ثمّ تأمره بثلاثة أوامر.

النعمة الأولى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾

فقـد كنـت يا محمّد في رحم أُمّك حين توفّي والدك فآويتك إلى كنف جدّك عبد المطّلب «سيّد مكّة».

وكنـت فـي السادسة حين توفّيت والدتك، فـزاد يتمك، لكنّني زدت حبّـك في قلب «عبد المطّلب».

وكنت في الثامنة حين رحل جدّك «عبد المطّلب»، فسخّرت لك عمّك «أبا طالب».

النعمة الثّانية: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾

نعـم، لم تكن أيّهـا النّبيّ ﷺ على علم بالنبوّة والرسالة[2]، ونحـن أنزلنا هذا النور على قلبـك لتهدي به الإنسانيّة. وهـذا المعنى ورد في قوله تعالى أيضاً: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ

(1) سورة يونس، الآية 15.

(2) طبعـاً مـع الإشـارة إلى أنّ النبـي ﷺ معصوم منذ الصغـر، ولا يغيب عنه شيء، والنبـوة والوحي لهما علاقـة بعالم الظاهر والإثبات، أمّا في عالم الثبوت فكل شيء موجود لديه.

﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

مـن الواضح أنّ النّبـي ﷺ كان فاقداً لهذا الفيض الإلهيّ قبل وصولـه إلى مقام النبوّة، فـاللّه سبحانه أخـذ بيده وهداه وبلغ بـه هذا المقام. وإلـى هذا تُشير الآيـة (3) من سورة يوسـف: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾[2].

مـن المؤكّد أنّه لولا الهدايـة الإلهيّة والإمداد الغيبيّ ما استطـاع الرّسول ﷺ أن يهتدي المسير نحو الهدف المقصود.

من هنا فإنّ المقصود من الضلالة في كلمة «**ضـالّاً**» في الآية ليس نفي الإيمان والتوحيد والطهر والتقوى عن النّبيّ، بل بقرينة الآيات الّتي أشرنا إليها تعني نفي العلم بأسرار النبوّة وبأحـكام الإسلام، وتعني عدم معرفة هذه الحقائق، كما أكّد على ذلك كثير من المفسّرين. لكنّه ﷺ بعد البعثة اهتدى إلى هذه الأُمور بعون اللّه تعالى[3].

النعمة الثالثة: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾

لقـد جعلناك تستأثـر باهتمام «خديجة» هـذه المرأة المخلصة الوفيّـة لتضع كلّ ثروتها تحت تصرّفك من أجل تحقيق أهدافك، وبعد ظهور الإسلام رزقك مغانم كثيرة في الحروب ساعدتك في تحقيق أهدافك الرساليّة الكبرى.

ثمّ في الآيات التالية ثلاثة أوامر تصدر إلى الرسول باعتبارها نتيجة الآيات السابقة. والخطـاب وإن كان موجّهـاً إلـى الرسـول ﷺ، لكنّـه يشمـل أيضـاً كلّ المسلميـن.

﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾

«**تقهر**» من القهر أي الغلبة مع التحقير، وأيضاً تُستعمل في كلّ واحد من المعنيين، ومعنى التحقير هنا هو المناسب.

وهذا يدلّ على أنّ هناك مسألة أهمّ من الإطعام والإنفاق بشأن الأيتام، وهي اللطف بهم والعطـف عليهم وإزالة إحساسهـم بالنقص العاطفيّ، ولذا جاء فـي الحديث المعروف عن

(1) سورة الشورى، الآية 52.

(2) سورة يوسف، الآية 3.

(3) الشيرازي، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب اللّه المنزل، ج 20، ص 281.

رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**من مسـح يـده على رأس يتيم ترحّماً لـه، كتب الله له بكلّ شعرة مرّت عليه يده حسنة**»[1].

كأنّ الله يُخاطب نبيّه قائلاً: لقد كُنت يتيماً أيضاً وعانيت من آلام اليتم، والآن عليك أن تهتمّ بالأيتام كلّ اهتمام وأن تروي روحهم الظمأى بحبّك وعطفك.

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾

«**نَهَرَ**» بمعنى ردّ بخشونة

وفي معنى «**السائل**» عدّة تفاسير.

الأوّل: أنّه المتّجه بالسؤال حول القضايا العلميّة والعقائديّة والدينيّة، والدليل على ذلك هو أنّ هـذا الأمر تفريع على ما جاء في الآية السابقة: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾، فشكر هذه الهداية الإلهيّة يقتضي أن تسعى أيّها النّبيّ في هداية السائلين، وأن لا تطرد أيّ طالب للهداية عنك.

والتّفسير الآخر: هو الفقير في المال والمتاع، والأمر يكون عندئذ ببذل الجهد في هذا المجال، وبعدم ردّ هذا الفقير السائل يائساً.

والثّالث: أنّ المعنى يشمل الفقير علميّاً والفقير ماديّاً، والأمر بتلبية احتياجات السائل في المجالين. وهذا المعنى يتناسب مع الهداية الإلهيّة لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم، ومع إغنائه بعد عيلولته.

﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾.

والحديث عن النعمة قد يكون باللسان، وبتعابير تنمّ عن غاية الشكر والامتنان، لا عن التفاخر والغرور. وقد تكون بالعمل عن طريق الإنفاق من هذه النعمة في سبيل الله، إنفاقاً يُبيّن مدى هذه النعمة هذه هي خصلة الإنسان السخيّ الكريم... يشكر الله على النعمة، ويقرن الشكر بالعمل، خلافاً للسخفاء البخلاء الّذين لا يكفّون عن الشكوى والتأوّه، ولا يكشفون عن نعمه ولو حصلوا على الدنيا وما فيها، وجوههم يعلوها سيماء الفقر، وكلامهم مفعم بالتذمّر والحسرة، وعملهم يكشف عن فقر!

---

(1) علي بن بابويه، فقه الرضا، ص 172، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، نشر المؤتمر العالمي للإمام الرضا عليه السلام، ط 1، 1406هـ.

بينمـا روي عـن رسول الله ﷺ «**إنّ الله جميل يحب الجمال ويحـب أن يرى أثر نعمته على عبده**»[1].

مـن هنا يكون معنى الآية: بيّن ما أغـدق الله عليك من نِعَم بالقول والعمل، شكراً على ما أغناك الله إذ كنت عائلاً.

بعض المفسّرين ذهب إلى أنّ النعمة في الآية هي النعمة المعنويّة ومنها النبوّة والقرآن، والأمر للنبيّ بالإبلاغ والتبيين، وهذا هو المقصود من الحديث بالنعمة.

ويحتمل أيضاً أن يكون المعنى شاملاً للنعم الماديّة والمعنويّة، لذلك ورد عن الإمام جعفر بـن محمّد الصـادق عليه السلام في تفسير هـذه الآية قوله: «**حدّث بما أعطاك الله، وفضّلك، ورزقك، وأحسن إليك وهداك**»[2].

وعـن رسـول الله ﷺ: «**من أُعطي خيـراً فلم يُر عليه، سُـمّي بغيض الله، معادياً لنعم الله**»[3].

وعـن الإمام أميـر المؤمنين علي بن أبي طالـب عليه السلام: «**إنّ الله جميل يُحـبّ الجمال، ويُحبّ أن يرى أثر النعمة على عبده**»[4].

(1) الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ج 5، ص 35.

(2) الطبرسي، مجمع البيان، ج 10، ص 507.

(3) تفسير القرطبي، ج 10، ص 7192، وقريب من هذا المعنى في الكافي، ج 6، كتاب الزي والتجميل، ح 2.

(4) الشيخ الكليني، الكافي، ج 6، ص 438.

المفاهيم الرئيسة

- يتبيّن من الآيات الكريمة في هذه السّورة أنّ النّبيّ ﷺ لا يملك لنفسه شيئاً إلّا من عند الله، وكما تُجسِّد للنّبيّ ﷺ ثلاث هبات من الهبات الخاصّة الّتي أنعم الله بها عليه:

  الرعاية عند اليتم، والهدى بالوحي، والغنى بعد الفقر.
- تتضمّن هذه السورة المباركة إشارة مضمونيّة إلى مسألة أهمّ من الإطعام والإنفاق بشأن الأيتام، وهي اللطف بهم والعطف عليهم وإزالة إحساسهم بالنقص العاطفيّ.
- الإنسان السخيّ الكريم... يشكر الله على النعمة، ويقرن الشكر بالعمل، ويحدّث بها حديث الشكر لا حديث الغرور.

الدرس السادس عشر

تفسير سورة البيّنة

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يعرف المقصود من قوله تعالى: دين القيمة، في السورة.

2 . يشرح تفسير آيات السورة إجمالاً.

3 . يفهم موقف أهل الكتاب عندما أتتهم البيّنة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ
يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ
الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ
دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ أُولَٰئِكَ
هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِندَ
رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ
رَبَّهُ ﴿٨﴾

في رحاب السورة

المشهور أنّ هذه السّورة نزلت في المدينة، ومحتواها يؤيّد ذلك، إذ تحدّثت في مواضع متعدّدة عن أهل الكتاب. وغالباً ما واجه المسلمون أهلَ الكتاب في المدينة.

أضف إلى ذلك أنّ السّورة تحدّثت عن الصلاة والزكاة، والزكاة - مع أنّها شُرّعت في مكّة - اتّخذت طابعها الرسميّ الواسع في المدينة.

هذه السّورة تناولت رسالة رسول الله ﷺ وما فيها من دلائل بيّنة. هذه الرسالة الّتي كان أهل الكتاب ينتظرونها، لكن حين ظهرت، أعرض عنها فريقٌ منهم لما وجدوا فيها من خطر على مصالحهم الشخصيّة.

والسّورة تُقرِّر حقيقة وجود الإيمان بالله والتوحيد والصلاة والصيام في كلّ الأديان ودعوات الأنبياء عليهم السلام باعتبارها أُصولاً ثابتة خالدة.

وفـي مقطع آخر من السّورة بيان عـن مواقف أهل الكتاب والمشركيـن تجاه الإسلام... بعضهم آمن وعمل صالحاً فهو خير المخلوقات، وبعضهم كفر وأشرك فهو شرّ البريّة.

ذلك دين القيّمة

فـي بداية السّـورة ذكر لأهل الكتـاب (اليهود والنصـارى) ومشركي العـرب قبل ظهور الإسلام، فهؤلاء كانوا يدّعون أنّهم غير منفكّين عن دينهم إلاّ بدليل واضح قاطع.

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾.

و«**البيّنة**» الّتي أرادوها: رسول من الله يتلو عليهم كتاباً مطهّراً من ربّ العالمين:

﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾.

وهذه الصحف فيها من الكتابة ما هو صحيح وثابت وذو قيمة.

﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾

كان هـذا ادّعاؤهم قبل ظهـور الإسلام، وحينما ظهر ونزلت آياتـه تغيّر هؤلاء، واختلفوا وتفرّقوا! وما تفرّقوا إلاّ بعد أن جاءهم الدليل الواضح والنبيّ الصادح بالحقّ.

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾

فالآيـات الأولى لهذه السّـورة المباركة تتحدّث عن أهل الكتـاب والمشركين الّذين كانوا يدّعون أنّهم سوف يقبلون الدعوة إنّ جاءهم نبيٌّ بالدلائل الساطعة.

لكنّهم أعرضوا حين ظهر، وجابهوه، إلاّ فريق منهم آمن واهتدى.

وهـذا المعنى يُشبه ما جاء في قوله تعالـى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

نعلـم أنّ أهـل الكتـاب كانوا ينتظـرون مثل هذا الظهـور، ولا بدّ أن يكـون مشركو العرب مشاركيـن لأهل الكتاب في هـذا الانتظار لما كانوا يرون فيهم مـن علم ومعرفة، ولكن حين تحقّقت آمالهم غيّروا مسيرهم والتحقوا بأعداء الدعوة.

ثمّة تفسير آخر للآية هو أنّ الله لا يترك أهل الكتاب والمشركين لحالهم حتّى يُتمّ الحجّة

(1) سورة البقرة، الآية 89.

عليهم ويُرسل إليهم البيّنة ويُبيّن لهم الطريق. ولذلك أرسل إليهم نبيّ الإسلام لهدايتهم.

بناءً على هذا التّفسير، هذه الآية تُشير إلى قاعدة اللطف الّتي يتناولها علم الكلام وتُقرّر أن يبعث الله إلى كلّ قوم دلائل واضحة ليتمّ الحجّة عليهم.

على أيّ حال، «البيّنة» في الآية هي الدليل الواضح، ومصداقها حسب الآية الثّانية شخص «رسول الله» وهو يتلو عليهم القرآن.

«**صحف**» جمع «صحيفة»، وتعني ما يُكتب عليه من الورق، والمقصود بها هنا محتوى هذه الأوراق، إذ نعلم أنّ الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن يتلو شيئاً عليهم من الأوراق.

و«**مطهّرة**» أي طاهرة من كلّ ألوان الشرك والكذب والباطل، ومن تلاعب شياطين الجنّ والإنس، كما جاء أيضاً في قوله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾[1].

جملة (فيها كتب قيّمة) إشارة إلى أنّ ما في هذه الصحف السماويّة خالٍ من الانحراف والاعوجاج. من هنا فإنّ هذه «**الكتب**» تعني المكتوبات، أو تعني الأحكام والتشريعات المنصوصة من الله، لأنّ الكتابة جاءت بمعنى تعيين الحكم أيضاً، كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[2].

وبهذا يكون معنى «**قيّمة**» سويّة ومستقيمة، أو ثابتة ومستحكمة، أو ذات قيمة، أو كلّ هذه المعاني مجتمعة.

ويُحتمل أيضاً أن يكون المعنى هو أنّ القرآن فيه الكتب السماويّة القيّمة السابقة لأنّه يضمّ جميع محتوياتها وزيادة.

ويلفت النظر تقدّم ذكر أهل الكتاب على المشركين في الآية الأولى، والاقتصار على ذكر أهل الكتاب في الآية الرابعة دون ذكر المشركين، بينما الآية تُريد الاثنين.

وهذا يعود ظاهراً إلى أنّ أهل الكتاب كانوا هم الروّاد في هذه المواقف، وكان المشركون تابعين لهم، أو لأنّ أهل الكتاب كانوا أهلاً للذمّ أكثر لما عندهم من علماء كثيرين، وبذلك كانوا ذوي مستوى أرفع من المشركين. فمعارضتهم - إذاً - أفظع وأبشع وتستحقّ مزيداً من التقريع.

---

(1) سورة فصّلت، الآية 42.

(2) سورة البقرة، الآية 183.

ثمّ يتوالى التقريع لأهل الكتاب، ومن بعدهم للمشركين، لأنّهم اختلفوا في الدِّين الجديد، منهم مؤمن ومنهم كافر، بينما: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾.

ثمّ تُضيف الآية القول: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾.

المقصود هو أنّ دين الإسلام ليس فيه سوى التوحيد الخالص والصلاة والزكاة وأمثالها من التعاليم. وهذه أمورٌ معروفة فلماذا يُعرضون عنها؟.

وقوله تعالى: ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ أي بمجموع الدِّين والشريعة، أي أنّهم أُمروا أن يعبدوا الله وأن يُخلصوا له الدِّين والتشريع في جميع المجالات، فجملة ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ تؤيّد هذا المعنى لأنّها طرحت الدِّين بمفهومه الواسع.

«**حنفاء**» جمع «حنيف»، من الفعل الثّلاثي حَنَفَ، أي عدل عن الضلال إلى الطريق المستقيم. جملة ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ إشارة إلى أنّ الأُصول المذكورة في الآية وهي: التوحيد الخالص، والصلاة «الارتباط بالله» والزكاة «الارتباط بالنّاس» من الأُصول الثابتة الخالدة في جميع الأديان، بل إنّها قائمة في أعماق فطرة الإنسان. ذلك لأنّ مصير الإنسان يرتبط بالتوحيد، وفطرته تدعوه إلى معرفة المنعم وشكره، ثمّ إنّ الروح الإجتماعيّة المدنيّة للإنسان تدعوه إلى مساعدة المحرومين.

من هنا، هذه التعاليم لها جذور في أعماق الفطرة، وهي لذلك كانت في تعاليم كلّ الأنبياء السابقين وتعاليم خاتم النبيّين ﷺ.

خير البريّة وشرّها

الآيات السابقة تحدّثت عن انتظار أهل الكتاب والمشركين لبيّنة تأتيهم من الله، لكنّهم تفرّقوا من بعد ما جاءتهم البيّنة.

هذه الآيات تذكر مجموعتين من النّاس مختلفتين في موقفهما من الدعوة «كافرة» و«مؤمنة» تذكر الكافرين أوّلاً بالقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾

وإنّما قال «**كفروا**» لكفرهم بالدِّين المبين، وإلّا فإنّ كفرهم ليس بجديد.

وعبارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ عبارة قارعة مثيرة، تعني أنّه لا يوجد بين الأحياء وغير الأحياء موجود أضلّ وأسوأ من الّذين تركوا الطريق المستقيم بعد وضوح الحقّ وإتمام الحجّة، وساروا في طريق الضلال، مثل هذا المعنى ورد أيضاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾[1]، وفي قوله سبحانه يصف أهل النّار: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾[2].

وهذه الآية الّتي نحن بصددها تذهب في وصف هؤلاء المعاندين إلى أبعد ممّا يذهب إليه غيرها، لأنّها تصفهم بأنّهم شرّ المخلوقات، وهذا بمثابة بيان الدليل على خلودهم في نار جهنّم.

ولِمَ لا يكونون شرّ المخلوقات وقد فُتحت أمامهم جميع أبواب السعادة فأعرضوا عنها كبراً وغروراً وعناداً؟

الآية التالية تذكر المجموعة الثّانية، وهم المؤمنون وتقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾.

ثمّ ذكرت السورة جزاء هؤلاء المؤمنين، وما لهم عند الله من مثوبة:

﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾.

يُلاحظ أنّ الحديث عن المؤمنين مقرون بذكر الأعمال الصالحة، باعتبارها ثمرة دوحة الإيمان. وفي ذلك إشارة إلى أن ادّعاء الإيمان وحده لا يكفي، بل لا بدّ أن تشهد عليه الأعمال الصالحة. لكنّ الكفر وحده ـ وإن لم يقترن بالأعمال السيّئة ـ مبعث السقوط والشقاء. أضف إلى ذلك أنّ الكفر عادة منطلق لأنواع الذنوب والجرائم والانحرافات.

عبارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ تُبيّن بجلاء أنّ الإنسان المؤمن ذا الأعمال الصالحة أفضل من الملائكة، فعبارة الآية مطلقة وليس فيها استثناء. والآيات الأخرى تشهد على ذلك أيضاً، مثل آية سجود الملائكة لآدم، ومثل قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[3].

---

(1) سورة الأنفال، الآية 22.

(2) سورة الأعراف، الآية 179.

(3) سورة الإسراء، الآية 70.

هـذه الآيـة تحدّثت عن الجـزاء المـادّيّ الّذي ينتظـر المؤمنين، وعن الجـزاء المعنويّ الروحيّ لهم، وهو رضا الله عنهم ورضاهم عنه.

إنّهـم راضـون عن الله لأنّ الله أعطاهم ما أرادوه، والله راضٍ عنهم لأنّهم أدّوا ما أراده منهـم، وإن كانـت هناك زلّة فقد غفرها بلطفه وكرمه. وأيّة لذّة أعظم من أن يشعر الإنسان بأنّه نال رضا المحبوب ووصاله ولقاءه؟

نعم، نعيم جسد الإنسان جنّات الخلد، ونعيم روحه رضى الله ولقاؤه.

جملـة ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ تـدلّ على أنّ كلّ هذه البركات تنطلـق من «خشية الله»، لأنّ هذه الخشية دافع للحركة صوب كلّ طاعة وتقوى وعمل صالح.

عليّ عليه السلام وشيعته خير البريّة

ثمّـة روايات كثيـرة من طرق أهل السنّة فـي مصادرهم الحديثيّـة المعروفة، وهكذا في المصادر الشيعيّة، فسّرت الآية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ بأنّهم عليّ وشيعته.

فـ «الحاكـم الحسكانـيّ النيسابـوريّ» عالم أهـل السنّة المعـروف في القـرن الخامس الهجـريّ نقل هذه الرّوايات في كتابه المشهـور «شواهد التنزيل» بطرق مختلفة، ويزيد عدد هذه الرّوايات على العشرين نذكر منها على سبيل المثال ما يلي:

1. عـن ابن عبّاس قـال: عندما نزلت آية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعليّ: «**هو أنت وشـيعتك تأتي أنت وشـيعتك يوم القيامة راضين مرضيّين ويأتي عدوّك غضباناً مقمحين**»[1].
2. وعـن جابر بن عبد الله الأنصاريّ قال: كنّا جالسيـن عند النبيّ جوار الكعبة، فأقدم علينـا عليّ، وحين رآه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**قد أتاكم أخـي**»، ثمّ التفت إلى الكعبة، وقال: «**وربّ هذه البيّنة، إنّ هذا وشيعته هم الفائزون يوم القيامة**».

ثـمّ التفت إلينا وقال: «**أمـا والله إنّه أوّلكم إيماناً بالله، وأقومكـم بأمر الله، وأوفاكم بعهد الله، وأقضـاكم بحكم الله، وأقسـمكم بالسويّة، وأعدلكم في الرعيّة وأعظمكم عند الله مزيّة**».

(1) الحاكم الحسكاني، شواهد التنزيل، ج 2، ص 357، ح 1126.

قـال جابر: فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ فكان عليّ إذا أقبل قال أصحاب محمّد: قد أتاكم خير البريّة بعد رسول الله[1].

بعض هذه الأحاديث رواه ابن حجر في الصواعق، ومحمّد الشبلنجيّ في نور الأبصار. وجـلال الدِّين السيوطيّ نقل القسم الأعظـم من الرّواية الأخيرة عن ابن عساكر عن جابر بن عبد الله الأنصاري.

3. فـي «الدرّ المنثـور» عن ابن عبّاس قال: «حيـن نزلت آية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾، قـال رسـول الله لعلـيّ: «**هـو أنـت وشـيعتك يـوم القيامة راضين مرضيّين**».

باختصـار هذا الحديـث من الأحاديـث المعروفة المشهـورة المقبولة لـدى أكثر علماء الإسلام، وفيه بيان لفضيلة كبرى من فضائل عليّ وأتباعه.

وهـذه الرّوايات تدلّ ضمناً علـى أنّ كلمة «**الشـيعة**» باعتبارها اسمـاً لأتباع عليّ عليه السلام كانـت قد شاعت منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيـن المسلمين على لسان الرّسول نفسه. وأولئك الّذين يخالون أنّ الكلمة هذه ظهرت في عصور متأخّرة في خطأ كبير.

منحنى الصعود والسقوط

مـن آيات هذه السّـورة المباركة يُستفاد أنّ الإنسان فريد بيـن مخلوقات الكون في البون الشاسع الّذي يفصل بين منحنى ارتفاعه وسموّه وبين منحنى سقوطه وهبوطه. فإذا كان من الّذين آمنـوا وعملوا الصالحات (عبارة «**عملوا الصـالحات**» تشمل كلّ الأعمال الصالحة لا بعضها) فهو أفضل خلق الله؛ وإن سلك طريق الكفر والضلالة والعناد هبط إلى هوّة سحيقة وكان شرّ خلق الله.

هـذا البـون الشاسع بين الاتّجاهين ـ رغم خطورته وحساسيّته ـ له دلالة كبيرة على مكانة النـوع البشـريّ وقابليّته للتكامل. وطبيعـيّ أن يكون إلى جانب هذه القابليـة العظيمة إمكان عظيم للهبوط والسقوط.

(1) م. س، ص 359، ح 1130.

المفاهيم الرئيسة

- هـذه السّورة تناولـت رسالة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومـا فيها من دلائل بيّنـة. والسّورة تُقرِّر حقيقـة وجـود الإيمان والتوحيد والصـلاة والصيام في كلّ الأديـان ودعوات الأنبياء باعتبارها أصولاً ثابتة.
- الآيـات الأولى لهذه السّورة المباركة تتحدّث عن أهل الكتاب والمشركين الّذين كانوا يدّعون أنّهم سوف يقبلـون الدعوة إن جاءهم نبيٌّ بالدلائل الساطعة. لكنّهم أعرضوا حين ظهر، وجابهوه، إلّا فريقٌ منهم آمن واهتدى.
- إنّ ديـن الإسـلام ليس فيه سـوى التوحيد الخالص والصلاة والـزكاة وأمثالها من التعاليـم. وذكر المؤمنيـن مقرون بذكر الأعمـال الصالحة، باعتبارهـا ثمرة دوحة الإيمان.
- نعيـم جسد الإنسـان جنّات الخلد، ونعيـم روحه رضا الله ولقاؤه. وخيـر البريّة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وشيعته.

الدرس السابع عشر

تفسير سورة الجمعة

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يعرف المحاور الأساس لسورة الجمعة.

2 . يفهم هدف البعثة النبويّة على ضوء سورة الجمعة.

3 . يشرح أهميّة صلاة الجمعة من الناحية العبادية والسياسية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ
رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ
﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو
الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ
بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا
إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا
قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ۖ
ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ
لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾
فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ
﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ۚ وَاللَّهُ
خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾

في رحاب السورة

تدور هذه السورة المباركة حول محورَين أساسين:

المحور الأوّل: هو التوحيد وصفات الله والهدف من بعثة الرسول ومسألة المعاد.

والمحور الثاني: هو الأثر التربويّ لصلاة الجمعة وبعض الخصوصيّات المتعلّقة بهذه العبادة العظيمة.

ولكن يُمكن أن نُجمل الأبحاث الّتي وردت في هذه السورة المباركة بالنقاط التالية:

1. تسبيح كافّة المخلوقات.
2. الهدف التعليميّ والتربويّ من بعثة الرسول ﷺ.
3. تحذير المؤمنين وتنبيههم من مغبّة الوقوع في الانحراف الّذي وقع فيه اليهود فابتعدوا عن جادّة الصواب والحقّ.
4. إشارة إلى قانون الموت العامّ والشامل الّذي يُمثّل المعبر إلى عالم البقاء والخلود.
5. التأكيد على أداء فريضة صلاة الجمعة، وحثّ المؤمنين على تعطيل العمل والكسب من أجل المشاركة فيها.

الهدف من بعثة الرسول

تبدأ هذه السورة بالتسبيح لله عزّ وجلّ، وتُشير إلى بعض صفات الجمال والجلال والأسماء الحسنى لله. ويُعتبر ذلك في الحقيقة مقدّمة للأبحاث القادمة، حيث يقول تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، حيث يُسبّحونه ويُنزّهونه عن جميع العيوب والنقائص، الملك القدّوس العزيز الحكيم.

وبناءً على ذلك تُشير الآية أوّلاً إلى «المالكيّة والحاكميّة المطلقة» لله سبحانه، ثمّ «تُنزّهه من أيّ نوع من الظلم والنقص» وذلك لارتباط اسم الملوك بأنواع المظالم والمآسي، فجاءت كلمة «**قدّوس**» لتنفي كلّ ذلك عنه جلّ شأنه.

وبعد هذه الإشارة الخاطفة ذات المعنى العظيم لمسألة التوحيد وصفات الله، يتحدّث القرآن عن بعثة الرسول والهدف من هذه الرسالة العظيمة المرتبطة بالعزيز الحكيم القدّوس، حيث يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾.

وذلك من أجل أن يُطهّرهم من كلّ أشكال الشرك والكفر والانحراف والفساد ويُزكّيهم ويُعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

«**الأمّيّين**» جمع (أمّيّ) وهو الّذي لا يعرف القراءة والكتابة (نسبته إلى الأمّ باعتبار أنّه لم يتلقّ تعليماً في معهد أو مدرسة فهو بقي على ما ولدته أمّه).

والجدير بالذكر أنّ الآية تؤكّد أن نبيّ الإسلام بُعث من بين هؤلاء الأمّيّين الّذين لم

يتلقّوا ثقافة وتعليماً وذلك لبيان عظمة الرسالة وذكر الدليل على حقّانيّتها، لأنّ من المحال أن يكون هذا القرآن العظيم وبذلك المحتوى العميق وليد فكر بشريّ وفي ذلك المحيط الجاهليّ ومن شخص أميّ أيضاً، بل هو نور أشرق في الظلمات، ودوحة خضراء في قلب الصحراء، وهي بحدّ ذاتها معجزة باهرة وسند قاطع على حقّانيّته...

ولخّصت الآية الهدف من بعثة الرسول ﷺ في ثلاثة أمور، جاء أحدها كمقدّمة وهو تلاوة الآيات عليهم، بينما شكّل الأمران الآخران أي (تهذيب وتزكية النفس) و (تعليمهم الكتاب والحكمة) الهدف النهائيّ الكبير.

ولكن لم يكن الرسول مبعوثاً لهذا المجتمع الأمّيّ فقط، بل كانت دعوته عامّة لجميع الناس، فقد جاء في الآية التالية ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾[1].

وجاء في آخر الآية: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

بعد أن يُشير إلى هذه النعمة الكبيرة - أي نعمة بعث نبيّ الإسلام الأكرم وبرنامجه التعليميّ والتربويّ - يُضيف قائلاً: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

الحمار الّذي يحمل الأسفار

جاء في بعض الروايات أنّ اليهود قالوا: (إذا كان محمّد قد بُعث برسالة فإنّ رسالته لا تشملنا) فردّت عليهم الآية مورد البحث في أوّل بيان لها بأنّ رسالته قد أُشير إليها في كتابكم السماويّ لو أنّكم قرأتموه وعملتم به.

يقول تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾، أي نزلت عليهم التوراة وكُلّفوا بالعمل بها ولكنّهم لم يؤدّوا حقّها ولم يعملوا بآياتها فمثلهم ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾.

لا يشعر هذا الحيوان بمّا يحمل من كتب إلّا بثقلها، ولا يُميّز بين أن يكون المحمول على ظهره خشباً أو حجراً أو كتباً فيها أدقّ أسرار الخلق وأحسن منهج في الحياة.

لقد اقتنع هؤلاء القوم بتلاوة التوراة واكتفوا بذلك دون أن يعملوا بموجبها.

هؤلاء مثلهم كمثل الحمار الّذي يُضرب به المثل في الغباء والحماقة.

وذلك أوضح مثال يُمكن أن يكشف عن قيمة العلم وأهمّيّته.

---

(1) سورة الجمعة، الآية 3.

ويُعتبر ذلك تحذيراً للمسلمين كافّة من أن ينتهوا إلى ما انتهى إليه اليهود، فقد شملتهم الرحمة الإلهيّة ونزل عليهم القرآن الكريم، لا لكي يضعوه على الرفوف يعلوه الغبار، أو يحملوه كما تُحمل التعاويذ أو ما إلى ذلك. وقد لا يتعدّى اهتمام بعض المسلمين بالقرآن أكثر من تلاوته بصوت جميل في أغلب الأحيان.

توصيف حال اليهود

ثمّ يقول تعالى: بئس مثل القوم الّذين كذّبوا بآيات الله، إذ لم يكتفوا بمخالفة القرآن عملاً، بل أنكروه بلسانهم أيضاً، حيث قالت الآية (87) من سورة البقرة وهي تصف اليهود: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾[1].

ويقول تعالى في آخر الآية في عبارة وجيزة: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

صحيح أنّ الهداية شأن إلهيّ، ولكن ينبغي أن تُهيّأ لها الأرضيّة اللّازمة، وهي الروح التوّاقة لطلب الحقّ والبحث عنه، وهي أمورٌ يجب أن يُهيّئها الإنسان نفسه، ولا شكّ أنّ الظالمين يفتقدون مثل هذه الأرضيّة.

ومن المعروف أنّ اليهود اعتبروا أنفسهم أمّة مختارة، أو نسيجاً خاصّاً لا يُشبه غيره، وذهبوا إلى أبعد من ذلك حينما ادّعوا أنّهم أبناء الله وأحبّاؤه، وهذا ما أشارت إليه الآية (18) من سورة المائدة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[2] (رغم أنّهم يقصدون الأبناء المجازيّين).

ولكنّ القرآن شجب هذا التعالي مرّة أخرى بقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

فالأحبّاء يتمنّون اللقاء دائماً، ولا يتمّ اللّقاء المعنويّ بالله يوم القيامة إلّا عندما تزول حجب عالم الدنيا وينقشع غبار الشهوات والهوى، وحينئذ سيرى الإنسان جمال المحبوب ويجلس على بساط قربه، ويكون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[3] فيدخل إلى حرم الحبيب.

---

(1) سورة البقرة، الآية 87.

(2) سورة المائدة، الآية 18.

(3) سورة القمر، الآية 55.

إنّ خوفكم وفراركم من الموت دليل قاطع على أنّكم متعلّقون بهذه الدنيا وغير صادقين في ادّعائكم.

ويوضّح القرآن الكريم هذا المعنى بتعبير آخر في سورة البقرة آية (96) عندما يقول تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[1].

ثمّ يُشير القرآن إلى سبب خوفهم من الموت بقوله: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌۢ بِالظَّٰلِمِينَ﴾.

لأنّ خوف الإنسان من الموت ناشئ من عاملين أساسين:

الأوّل: عدم إيمان الإنسان بالحياة بعد الموت واعتقاده أنّ الموت زوال وفناء.

والثاني: أعماله السيّئة الّتي يعتقد أنّه سيواجهها بعد مماته في عالم الآخرة عندما تُقام المحكمة الإلهيّة.

وقد وصفهم القرآن الكريم بالظالمين، وذلك لأنّ الظلم يتّسع ليشمل جميع الأعمال السيّئة والجرائم الّتي ارتكبوها، من قتلهم الأنبياء وقول الزور وغصب الحقوق وتلوّثهم بمختلف المفاسد الأخلاقيّة.

غير أنّ هذا الخوف وذلك الفرار لا يُجدي شيئاً، فالموت أمرٌ حتميّ لا بدّ أن يُدرك الجميع، إذ يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

الموت قانون عامّ يخضع له الجميع بما فيهم الأنبياء والملائكة وجميع الناس، كلّ من عليها فانٍ ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام.

وكذلك المثول أمام محكمة العدل الإلهيّ لا يفلت منها أحد، إضافة إلى علم الله تعالى بأعمال عباده بدقّة وبتفصيل كامل.

وبهذا سوف لا يكون هناك طريق للتخلّص من هذا الخوف سوى تقوى الله وتطهير النفس والقلب من المعاصي. وبعد أن يُخلص الإنسان لله تعالى فإنّه لن يخاف الموت حينئذ.

---

(1) سورة البقرة، الآية 96.

ويُعبّـر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن هذه المرحلة بقوله: «**هيهات بعد اللّتيّا والّتي، والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمّه**»[1].

فـإذا صدّقت النفس أنّ (الدنيا سجن المؤمن وجنّـة الكافر) وإذا أيقنت هذه النفس أنّ هـذا البدن الترابيّ إنّما هو سجن للروح وسور يضـرب الحصار عليها، إذا آمنت بذلك حقّاً وكانت نظرة الإنسان إلى الموت هكذا فإنّه سوف لن يخشى الموت أبداً.

لهـذا نجد في قصّة عاشوراء أنّه كلّما ضاقت حلقـة الأعداء وازداد ضغطهم على الإمام الحسيـن وأصحابه ازدادت وجوههم إشراقاً، حتّـى أنّ الشيوخ من أصحابه كانت الابتسامة تطفو على وجوههم في صبيحة عاشوراء، وحينما كانوا يُسألون كانوا يقولون: إنّنا سنُستشهد بعد ساعات فنُعانق الحور العين[2].

والسبـب الآخر الّذي يجعل الإنسان يخـاف من الموت هو التعلّق بالدنيا أكثر من اللازم، الأمر الّذي يجعله يرى الموت الشيء الّذي سيفصله عن محبوبه ومعشوقه الّذي هو الدنيا.

وكثـرة السيّئـات وقلّة الحسنات في صحيفة الأعمال هي السبـب الثالث وراء الخوف من المـوت، فقـد جاء شخص وسأل (أبا ذرّ): ما لنا نكره المـوت؟ فأجابه أبو ذرّ قائلاً: «لأنّكم عمّرتم الدنيا وخرّبتم الآخرة، فتكرهون أن تنتقلوا من عمران إلى خراب»[3].

أهمّيّة صلاة الجمعة

إنّ أفضـل دليل علـى أهمّيّة هذه الفريضـة العظيمة هو الآيات الأخيرة فـي هذه السورة المباركـة، الّتـي أمرت جميـع المسلمين وأهـل الإيمان بمجـرّد سماعهـم لأذان الجمعة أن يُسرعوا إليها ويتركوا الكسب والعمل، وكلّ ما من شأنه أن يُزاحم هذه الفريضة.

عـن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنّ الله تعالى فرض عليكم الجمعة، فمن تركها في حياتي أو بعـد موتـي استخفافاً بها أو جحوداً لها، فلا جمع الله شـمله ولا بـارك له في أمره، ألا ولا صلاة له، ألا ولا زكاة له، ألا ولا حجّ له، ألا ولا صوم له، ألا ولا برّ له، حتّى يتوب**»[4].

(1) نهج البلاغة، ج1، ص41.
(2) المقرم، مقتل الحسين، ص 263.
(3) الفيض الكاشاني، المحجّة البيضاء، ج 8، ص 258.
(4) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج 5، ص 7.

وفي حديث آخر عن رسول الله ﷺ: «**من أتى الجمعة إيماناً واحتساباً استأنف العمل**»[1]. أي غُفرت ذنوبه ويبدأ العمل من جديد.

وجاء في حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام: «**صلاة الجمعة فريضة والاجتماع إليها فريضة مع الإمام، فإن ترك رجل من غير علّة ثلاث جمع فقد ترك ثلاث فرائض ولا يدع ثلاث فرائض من غير علّة إلّا منافق**»[2].

والروايات كثيرة في هذا المجال ولا يتّسع المجال لذكرها جميعاً، لذا نحاول أن نُنهي هذا البحث بحديث آخر، حيث جاء رجل إلى الرسول ﷺ فقال: يا رسول الله، إنّي تهيّأت عدّة مرّات للحجّ ولكنّي لم أوفّق. قال ﷺ: «**عليك بالجمعة فإنّها حجّ المساكين**»[3]. وفي ذلك إشارة إلى أنّ ما يتضمّنه هذا المؤتمر الإسلاميّ الكبير (أي الحجّ) من بركات، موجودة في اجتماع صلاة الجمعة.

ومن الملفت للنظر أنّه قد ورد ذمّ شديد لتارك صلاة الجمعة، حتّى عُدّ التاركون للجمعة في صفّ المنافقين عندما تكون صلاة الجمعة واجباً عينيّاً (أي في زمن حضور الإمام المعصوم عليه السلام) وأمّا في زمن الغيبة - وبناءاً على أنّها واجبة تخييراً بينها وبين صلاة الظهر - فإنّه لا يكون مشمولاً بهذا الذمّ والتقريع (للتوسّع في ذلك يجب الرجوع إلى الكتب الفقهيّة).

فلسفة صلاة الجمعة العباديّة والسياسيّة

إنّ صلاة الجمعة - قبل كلّ شيء - عبادة جماعيّة ولها أثر العبادات عموماً، حيث تُطهّر الروح والقلب من الذنوب، وتُزيل صدأ المعاصي عن القلوب، خاصّةً وأنّها تكون دائماً مسبوقة بخطبتين تشتملان على أنواع المواعظ والحكم، والحثّ على التقوى وخوف الله.

أمّا من الناحية السياسيّة والاجتماعيّة فهي أكبر مؤتمر أسبوعيّ عظيم بعد مؤتمر الحجّ السنويّ، لهذا نجد الرسول ﷺ يقول تلك الرواية الّتي نقلناها سابقاً حول أنّ الجمعة حجّ من لا يملك القدرة على المشاركة في الحج.

---

(1) وسائل الشيعة، ج 5، ص 3.

(2) الشيخ الصدوق، ثواب الأعمال، ص 233.

(3) م. ن، ج 7، ص 300.

ويُعطي الإسلام في الحقيقة أهميّة خاصّة لثلاثة مؤتمرات كبيرة:

التجمّعات الّتي تتمّ يوميّاً لصلاة الجماعة.

التجمّع الأسبوعيّ الأوسع في صلاة الجمعة.

ومؤتمر الحجّ الّذي يُعقد في كلّ سنة مرّة.

دور صلاة الجمعة

دور صلاة الجمعة مهمٌّ جدّاً خاصّة وأنّ الخطيب سيتحدّث في الخطبتين عن المسائل السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة وبذلك سيكون هذا التجمّع العظيم والمهيب منشأً للبركات والنِّعم التالية:

أ - توعية الناس على المعارف الإسلاميّة والأحداث السياسيّة والاجتماعيّة المهمّة.

ب - توثيق الاتّحاد والانسجام بين المسلمين أكثر لإخافة الأعداء.

ج - تجديد الروح الدينيّة ورفع معنويّات المسلمين.

د - إيجاد التعاون لحلّ المشكلات العامّة الّتي تواجه المسلمين.

ولهذا فإنّ أعداء الإسلام يخافون دائماً من صلاة الجمعة الجامعة للشرائط.

ولهذا - أيضاً - كانت صلاة الجمعة مصدر قوّة سياسيّة في أيدي حكومات العدل كحكومة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الّذي استثمرها أحسن استثمار لخدمة الإسلام، وكذلك كانت مصدر قوّة أيضاً لحكومات الجور كدولة بني أميّة الّذين استغلّوها لتحكيم قدرتهم وسيطرتهم وإضلال الناس.

وعلى مدى التاريخ نُلاحظ أنّ أيّة محاولة للتمرّد على النظام تبدأ أوّلاً بالامتناع عن صلاة الجمعة خلف الإمام المنصوب من قِبَل الحاكم، فقد جاء في قصّة عاشوراء أنّ بعض الشيعة اجتمعوا في دار سليمان بن صرد الخزاعيّ ثمّ بعثوا رسالة إلى الإمام الحسين عليه السلام من الكوفة جاء فيها «.. والنعمان بن بشير في قصر الإمارة، لسنا نجتمع معه في جمعة، ولا نخرج معه إلى عيد، ولو قد بلغنا أنّك قد أقبلت إلينا أخرجناه حتّى نُلحقه بالشام إن شاء الله»[1].

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 44، ص 333.

وفـي الصحيفة السجّاديّة عن الإمـام السجّاد عليه السلام: «**اللهمّ إنّ هـذا المقام لخلفائك وأصفيائك ومواضع أمنائك، في الدرجة الرفيعة الّتي اختصصتهم بها قد ابتزّوها**»[1].

وفي خطبة الجمعة يتمّ تبديد جميع الإشاعات الّتي كان الأعداء قد بثّوها خلال الأسبوع، وتدبّ بعد ذلك الحياة في جموع المسلمين ويبدأ دم جديد بالتدفّق.

وممّـا تجدر الإشارة إليه أنّ فقه أهـل البيت عليهم السلام ينصّ على عدم جواز إقامة أكثر من جمعـة واحدة في منطقـة نصف قطرها فرسخ، كما يجب أن يشـارك في صلاة الجمعة من كان يبعد عنها بمسافة فرسخين (أي ما يعادل أحد عشر كيلو متراً).

كلّ هـذا يعني أنّه لا يُمكن إقامة أكثر من صلاة جمعة في مدينة واحدة صغيرة أو كبيرة، مـع أطرافها وضواحيها. وبنـاءً على هذا فسيكون هذا التجمّع هـو أوسع تجمّع يُقام في تلك المنطقة.

ولكنّنا نجد مع الأسف أنّ هذه المراسم العباديّة السياسيّة الّتي تستطيع أن تكون مصدر حركة عظيمـة في المجتمعات الإسلاميّـة، نجدها بسبب سيطرة الحكومـات الفاسدة على بعض الدول الإسلاميّة قد فقدت روحها ومعناها، إلى الحدّ الّذي لا تترك فيه أيّ أثر إيجابيّ، وأصبحـت تُقام باعتبارهـا مراسم حكوميّة رسميّـة لا أكثر، وذلك ممّا يحـزّ بالنفس ويؤلم كثيراً.

(1) الصحيفة السجادية، الدعاء 42.

المفاهيم الرئيسة

تدور هذه السورة حول محورين أساسين:

الأوّل: هو التوحيد وصفات الله والهدف من بعثة الرسول ومسألة المعاد.

والمحور الثاني: هو الأثر التربويّ لصلاة الجمعة وبعض الخصوصيّات المتعلّقة بهذه العبادة العظيمة.

- صحيح أنّ الهداية شأن إلهيّ، ولكن ينبغي أن تُهيّأَ لها الأرضيّة اللّازمة، وهي الروح التوّاقة لطلب الحقّ والبحث عنه.
- الموت قانون عامّ يخضع له الجميع بما فيهم الأنبياء والملائكة وجميع الناس.
- إنّ السبب الأساس وراء الخوف من الموت هو عدم إيمان هؤلاء بالحياة بعد الموت أو التعلّق بالدنيا أكثر من اللّازم أو كثرة المعاصي.
- إنّ صلاة الجمعة - قبل كلّ شيء - عبادة جماعيّة ولها أثر العبادات عموماً، حيث تُطهّر الروح والقلب من الذنوب. أمّا من الناحية السياسيّة والاجتماعيّة فهي أكبر مؤتمر أسبوعيّ عظيم بعد مؤتمر الحجّ السنويّ.

الدرس الثامن عشر

سورة الشمس

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يشرح قصة معاندة قوم ثمود.

2 . يعرف معاني المفردات الآتية: الضحى، طغواها، دمدم، عقروها.

3 . يفهم أثر التزكية والتدسية في تهذيب النفس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾

شرح المفردات

1- **الضحى**: انتشار نور الشمس.

2- **تلاها**: اتبعها.

3- **جلّاها**: أظهرها وأبرزها.

4- **يغشاها**: يُغطّيها أو يلبسها السواد.

5- **طحاها**: بسطها ومهّدها.

6- **زكّاها**: طهرها.

7- **دساها**: أخفاها أو جعلها قليلة.

8- **طغواها**: طغيانها.

9- **عقروها**: أهلكوها.

10- **دمدم**: عذّب وعاقب وأهلك.

11- **عقباها**: عاقبتها.

محتوى السورة وفضيلتها

نزلت هذه السورة في مكّة، وهي في الواقع سورة تهذيب النفس، وتطهير القلوب من الأدران، ومعانيها تدور حول هذا الهدف. وفي مقدّمتها قسَمٌ بأحد عشر مظهراً من مظاهر الخليقة وبذات الباري سبحانه، من أجل التأكيد على أنّ فلاح الإنسان يتوقّف على تزكية نفسه. والسورة فيها من القسَم ما لم يجتمع في سورة أخرى.

وفـي المقطـع الأخير مـن السورة ذكر لقـوم ثمود باعتبارهـم نموذجاً مـن أقوام طغت وتمـرّدت، وانحـدرت بسبب ترك تزكيـة نفسها إلى هاويـة الشقاء الأبـديّ، والعقاب الإلهيّ الشديد.

هـذه السورة القصيرة في الواقع تكشف عن مسألـة مصيريّة هامّة من مسائل البشريّة، وتبيّن نظام الإسلام في تقييم أفراد البشر.

وفـي فضيلـة تلاوة هذه السورة يكفي أن نذكر حديثاً عـن رسول اللّه ﷺ، قال فيه: «**من قرأها فكأنّما تصدّق بكلّ شيء طلعت عليه الشمس والقمر**»[1].

في كنف السورة

1. الظواهر الكونيّة والنفس الإنسانيّة:

إنّ اقتران النفس الإنسانيّة مع الظواهر الكونيّة كالشمس والقمر والأرض والسماء والليل والنهـار، مع ما تتضمّنـه هذه الظواهر من عظمة يـدلُّ على عظمة النفـس الإنسانيّة ومدى دورها في هذا الكون العظيم.

فموضـوع النفـس الإنسانيّة موضـوع خطير وعظيـم، كعظمة السماء والأرض والشمس والقمر... فهي (أي النفس الإنسانيّة) تستحقّ الاهتمام من الإنسان ومعرفة ما يصلحها وما يُفسدها، كما أنّ هذه الظواهر تستحقّ التفكُّر.

مـن هنـا تعمل هـذه الأقسام على تحريـك الفكر في الإنسـان كي يُمعـن النظر في هذه الموضوعات الهامّة من عالم الخليقة، وليتّخذ منها سبيلاً إلى اللّه تعالى.

فالشمـس مثلاً: ذات دور هامّ وبنّاء جدّاً فـي الموجودات الحيّة على ظهر البسيطة. فهي إضافـة إلى كونها مصدراً للنور والحرارة ـ وهما عاملان أساسان في الحياة الأرضيّة ـ تعتبر مصـدراً لغيرهما مـن المظاهر الحياتيّة؛ حركـة الرياح، وهطول الأمطـار، ونموّ النباتات، وجريان الأنهـار والشلّالات، بل حتّى نشوء مصادر الطاقة مثل النفط والفحم الحجريّ، كلّ واحد منها يرتبط بشكل أو بآخر بنور الشمس.

(1) الشيخ الطبرسي، مجمع البيان، ج10، ص496.

ولو قُدّر لهذا المصباح الحياتيّ أن ينطفئ يوماً لساد الظلام والموت في كلّ مكان.

هذا جانب من التفكّر في بعض ما أقسمت به هذه السورة المباركة وهو جزء بسيط جدّاً من هذا الكون الشاسع.

﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[1].

2. أهمّيّة تهذيب النفس:

كلّما ازداد عدد أقسام القرآن ازدادت أهميّة الموضوع. وفي هذه السورة المباركة أكبر عدد من الأقسام، ثمّ جاء التركيز على أنّ النجاح والفلاح في تزكية النفس، وأنّ الخيبة والخسران في ترك التزكية. وهذه في الواقع أهمّ مسألة في حياة الإنسان. والقرآن إذ يطرح هذه الحقيقة إنّما يؤكد على أنّ فلاح الإنسان لا يتوقّف على جمع المال والمتاع الفاني ونيل المنصب والمقام، ولا على أعمال أشخاص آخرين كما هو معروف عند المسيحيّين بشأن ارتباط فلاح الإنسان بتضحية المسيح، بل الفلاح يرتبط بتزكية النفس وتطهيرها وسموّها في ظلّ الإيمان والعمل الصالح.

وشقاء الإنسان ليس أيضاً وليد قضاء وقدر إجباريّين، ولا نتيجة مصير مرسوم، ولا بسبب فعل هذا أو ذاك، بل هو بسبب التلوّث بالذنوب والانحراف عن مسير التقوى.

وفي التاريخ نماذج عديدة تؤكّد هذه الحقيقة.

ففي الأثر أنّ زوج العزيز -زليخا- قالت ليوسف لمّا أصبح حاكم مصر: إنّ الحرص والشهوة يُصيّران الملوك عبيداً، وإنّ الصبر والتقوى يُصيّران العبيد ملوكاً، فقال يوسف عليه السلام: قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2].

وعنها أيضاً قالت لمّا رأت موكب يوسف مارّاً من أمامها: الحمد لله الذي جعل الملوك بمعصيتهم عبيداً، وجعل العبيد بطاعتهم ملوكاً[3].

---

(1) سورة آل عمران، الآية191.

(2) سورة يوسف، الآية 90.

(3) نقلاً عن الأمثل، ناصر مكارم الشيرازي، ج20، ص248.

3. عاقبة أمّة لم تُهذِّب نفسها:

الفلاح والخيبة الناتجان عن تزكية النفس وعدمها، غير مقتصرين على الإنسان الفرد، بل هذه السنّة الإلهيّة تنطبق على الأمم. والآيات الأخيرة من هذه السورة المباركة تشير إلى هذه السنّة الإلهيّة، فتتحدّث عن مصير قوم «**ثمود**» بعبارات قصيرة قاطعة ذات مدلول عميق.

فقوم ثمود من أقدم الأقوام الّتي سكنت منطقة جبليّة بين الحجاز والشام. كانت لهم حياة رغدة مرفّهة، وأرض خصبة، وقصور فخمة، غير أنّهم لم يؤدّوا شكر هذه النعم، بل طغوا وكذّبوا نبيّهم صالحاً عليه السلام، واستهزؤوا بآيات الله تعالى، فكان عاقبة أمرهم أن أُبيدوا بصاعقة سماويّة.

ثمّ تستعرض السورة المباركة مقطعاً بارزاً من طغيان القوم وتقول: إذ انبعث أشقاها، وأشقى ثمود هو الّذي عقر الناقة الّتي ظهرت باعتبارها معجزة بين القوم، وكان قتلها إعلان حرب على النبيّ صالح عليه السلام.

هذا ويُلاحظ أنّ قاتل الناقة شخص واحد أشارت إليه الآية: ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴾.

بينما نُسب العقر إلى قوم ثمود جميعاً ﴿فَعَقَرُوهَا﴾، وهذا يعني أنّ كلّ هؤلاء القوم كانوا مشاركين في الجريمة، وذلك لأنّ هذه الجريمة تمّت برضا القوم فهم شركاء في الجريمة بهذا الرضا.

وعن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام قال: «**إنّما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمّهم الله بالعذاب لمّا عمّوه بالرضا، فقال سبحانه:** ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴾[1]»[2].

---

(1) سورة الشعراء، الآية 157.

(2) الشريف الرضي، خطب الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، ج2، ص181.

المفاهيم الرئيسة

- سورة الشمس هي سورة تهذيب النفس، وتطهير القلوب.
- موضـوع النفـس الإنسانيّة يساوي فـي أهميّته وخطورتـه، أهميّة وخطـورة الظواهر الكونيّة الّتي أقسم الله تعالى بها في هذه السورة.
- كثرة القسم تدلّ على أهميّة موضوع التزكية، وقد خاب وخسر من تركها.
- إنّ العقاب والخسران سنّة إلهيّة ستُصيب كلّ غافل عن تزكية نفسه وهذا ما جرى مع قوم ثمود.

الدرس التاسع عشر

سورة الليل

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يعرف سبب نزول سورة الليل.

2 . يشرح على ضوء السورة كيفية الوصول إلى اليسرى.

3 . يُعدّد على ضوء السورة صفات من يبتلى بالعسرى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ﴿٢١﴾

شرح المفردات

1- **يغشى**: يُغطّي.

2- **تجلّى**: ظهر.

3- **شتّى**: مختلف ومتنوّع.

4- **اليسرى**: العمل الصالح.

5- **استغنى**: طلب الغنى.

6- **العسرى**: التعب والنصب والشقاء.

7- **يُغني**: يقي ويحمي.

8- **تردّى**: هلك وسقط في العذاب.

9- **تلظّى**: تشتعل وتتوهّج.

10- **يتزكّى**: يتطهّر.

سبب النزول

هذه السورة مكّيّة، وقيل في سبب نزولها إنّ هذه السورة نزلت في رجل كان له شجر نخل كثير. ومن تلك الأشجار نخلة مائلة تطلّ بفرعها على بيت فقير ذي عيال. فكان الرجل يمنع عياله (الفقير) من أخذ ما يسقط من النخلة في الدار، وإذا أكل أحدهم شيئاً منها أدخل إصبعه في فيه وأخرجه. فشكا الفقير إلى النبيّ ﷺ.

فعرض النبيّ ﷺ على الرجل أن يُعطيه مقابل ذلك نخلة في الجنّة فرفض. إلّا أنّ أحد

المؤمنيـن اشتراه منه بأربعين نخلة وقام بإعطاء تلك النخلة للنبيّ ﷺ الّذي بادر إلى بيت الفقير ليعلمه بأنّ النخلة أصبحت ملكه، فأنزل الله هذه السورة[1].

محتوى السورة وفضيلتها

هـذه السورة تحمل كلّ خصائص السور المكيّة من قِصَر في الآيـات، وحرارة في طرح المحتوى، وتركّز أساساً على القيامة وعلى ما في ذلك اليوم من ثواب وعقاب.

بعـد القسـم بثلاث ظواهر فـي بداية السـورة يأتي تقسيـم الناس إلى منفقيـن متّقين، وبخـلاء منكِريـن. وتذكر عاقبـة كلّ مجموعة؛ اليسـرُ والسعادة والهنـاء للمجموعة الأولى، والعسرُ والضنك والشقاء للمجموعة الثانية.

وفـي مقطع آخر من السورة إشارة إلـى أنّ الهداية على الله سبحانه، وأنّه تعالى أنذرهم من نار جهنّم.

ثـمّ تذكـر السـورة في نهايتها مـن يدخل هـذه النار ومن ينجـو منها، مع ذكـر أوصاف الفريقين.

فـي فضيلة تلاوة هذه السـورة ورد عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «**من قرأها أعطاه الله حتّى يرضى، وعافاه من العسر ويسّر له اليسر**»[2].

في كنف السورة

في هذه السورة المباركة استفادات عديدة:

1. أنّهـا كما السورة السابقة: «سورة الشمس» تُحفّز العقل والتفكير الإنسانيّ على النظر والتأمّل في الظواهر الكونيّة، ولا يمرُّ عليها مروراً لا فائدة فيه.

فإنّ من المعروف أنّ الشيء الّذي تراه دائماً يفقد الاهتمام والاعتناء، فالشمس مثلاً الناس يمرّون عليها ولا يعرفـون قيمتها لأنّها دائماً في وجههم، وكـذا الليل والنهار، فلذلك اعتادوا على هذه الظواهر ولم يعيروها التأمُّل، مع ما تحمل لهم ولاستقرارهم على الأرض من أهمّيّة.

(1) الشيخ الطبرسي، مجمع البيان، ج10، ص501.
(2) م.ن، ج10، ص499.

هـذه السورة كغيرها من السور الّتي تأتي على ذكر الظواهر الكونيّة تريد للإنسان أن ينظـر إلـى أبعد من أفق ذاتـه، ولا يحشر نفسه في محدوديّتهـا، وبذلك تكون نظرته شموليّة للكون، فيتّسع أفق تفكيره ويكبر.

كمـا أنّ التفكّـر فـي عظمة الظواهـر الكونيّة «المعلـول، المخلوق» يدلُّنـا على عظمة موجدهـا «العلّة، الخالق»، وبذلك تنتعش النفس الإنسانيّة بالإيمان والتقوى والصلاح والطمأنينة.

2. الذكر والأنثى: السورة المباركة أيضاً تُلفت إلى ازدواجيّة الحياة الإنسانيّة، وأنّ هناك أنثـى وذكراً، رجلاً وامرأة، ولكلّ منهما قيمته عند الله، فلولا الرجل ما كانت المرأة، ولـولا المرأة ما كان الرجل، ولا عمرت الأرض بسكّانها. فالمرأة والرجل شريكان في هذه الحياة، وعلى كلٍّ منهما أن يقوم بدوره وأن يأخذ حقّه ويُعطي الحقّ للآخر.

والمراجـع للتاريـخ يرى أنّ الإنسانيّـة ظلمت المرأة عند كلّ مفصـل ابتعدت فيه عن الرسائل الإلهيّة.

فمثلاً عند عرب الجاهليّة لم يكن للمرأة وزن، وكانت لا ترث، وزواجها يرجع إلى أمر وليّهـا من دون أن يكون لها حقّ الاعتراض ولا المشورة، حتّى أنّ الولد يمنع أرملة أبيه من الزواج.

وكانـت المرأة تُمنع من الزواج إلّا من قريبهـا لوجود حقّ الدم عليها. وكانوا يفرحون إذا ولـد لهم ولد ذكر، ويغتمّـون إذا ولد لهم أنثى، إلى حدِّ وأد البنات ودفنهنّ حيّات، كما يذكر القرآن الكريم في عدّة آيات:

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾[1].

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾[2].

ففـي التوراة المحرّفة: «درت أنـا وقلبي لأعلم ولأبحث ولأطلب حكمةً وعقلاً، ولأعرف الشرّ أنّه جهالة، والحماقة أنّها جنون، فوجدت أمرّ من الموت المرأة الّتي هي شباك،

(1) سورة النحل، الآية 58.

(2) سورة التكوير، الآيتان 8 – 9

وقلبها أشراك، ويداها قيود،... رجلاً واحداً بين ألف وجدت أمّا امرأة فبين كلّ أولئك لم أجد»[1].

ولم ينحصر الظلم بعرب الجاهليّة بل حتّى بعض الفلاسفة ظلموا المرأة بآرائهم، يقول الفيلسوف «روسّو»: «إنّ المرأة لم تُخلق للعلم ولا للحكمة ولا للتفكير ولا للفنّ ولا للسياسة، وإنّما خلقت لتكون أمّاً تغذّي أطفالها بلبنها».

هذا كلّه بخلاف الإسلام الّذي رفع من قيمة المرأة وعرّفها حقيقتها وأكّد مسؤوليّتها كما الرجل، في كثير من آيات القرآن، ومنها هذه الآيات: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾.

كلّ ذلك يشمل الذكر والأنثى، فكلاهما مسؤول وكلاهما مثاب أو معاقب.

لذلك يقول تعالى مؤكّداً مسؤوليّة المرأة، وقدرتها على التكامل الإنساني كما الرجل: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[2].

إلى غير ذلك من الآيات الّتي تشير إلى هذه الحقيقة.

3. الهداية والإرادة: فقوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ يشير إلى حريّة الإرادة الإنسانيّة ذكراً كان الإنسان أو أنثى، وكون الإنسان مريداً مختاراً للطريق الّذي يسلكه إمّا التقى فالجنّة وإمّا التكذيب لله ورسوله فالنار.

ثم إنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾.

إشارة إلى أنّ الله تعالى لم يترك الإنسان دون أن يُعطيه سبل الهداية، حيث خلقه عاقلاً مختاراً، وأرسل له الرسل وأنزل الكتب الإلهيّة، لا سيّما خاتم الرسل محمّد ﷺ، وخاتمة الرسالات الإسلام العظيم، والقرآن الحكيم.

(1) انظر: سفر الجامعة، الإصحاح السادس من العهد القديم.

(2) سورة الأحزاب، الآية 35 .

المفاهيم الرئيسة

- تُركّز سورة الليل على القيامة وما فيها من ثواب وعقاب.
- تُحفّز هذه السورة المباركة العقل والفكر على التأمّل في الظواهر الكونيّة واستخلاص النتائج والعِبَر.
- لفتت هذه السورة إلى ازدواجيّة الحياة الإنسانيّة المؤلّفة من ذكر وأنثى، متابعة لمنهج الرسالات السماويّة وخاصّة الإسلام الّذي عرّف حقيقة الوجود الأنثويّ وأكّد مسؤوليّة المرأة في الحياة وقيمتها كما الرجل.
- أشارت الآيات الواردة فيها إلى حريّة الإرادة الإنسانيّة واختيار الإنسان للطريق الّذي يسلكه.

الدرس العشرون

مفاهيم قرآنيّة

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يعرف أهمّية الخشوع في العبادة.

2 . يشرح الخطوات العملية في تحضير القلب في الصلاة.

3 . يفهم العبر المستفادة من قصة طالوت.

المفهوم الأول: الخشوع في الصلاة

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[1].

1. أهمية الخشوع:

إنّ لكل عبادة جسداً وروحاً، وروح العبادة الإخلاص وهو ما لا يتحقّق دون حضور القلب وخشوعه حيث إنّ المدار عليه وهو الرئيس في هذه المملكة وسائر الجوارح تابعة له خاضعة لأوامره لذلك قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**أما أنه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه**»[2] حينما رأى رجلاً يعبث في صلاته وما من شك أنّ هذا الظاهر غير المقبول هو انعكاس للباطن وحاك عنه بما يتضمّن من آفّات ومشكلات وهذا مراد الحديث المتقدّم في الربط والتأثير بين القلب والجوارح وتبعيّتها له، وبإمكاننا القول إنّ الصلاة التي لا تُرفع هي من هذا القبيل حيث يكون المصلّي في حركاته الظاهرية قائماً بين يدي اللّه تعالى لكنّه في قلبه مشغول بسواه يُفكّر في تجارته أو ممتلكاته أو زوجته أو سائر أمور دنياه، أو أنّه قد شطّت أفكاره إلى حيث قاده طائر الخيال بعيداً عن كعبة مقصوده ليفرغ من صلاته وهو غير ملتفت في أي وقت بدأها، غير متذكّر لشيء قام بأدائه من أركانها أو أجزائها، يقول الإمام الخميني قدس سره: «اعلم أنّ التفرّغ للعبادة يحصل من تكريس الوقت والقلب لها والعبادة من دون حضور القلب غير مجدية وما يبعث على حضور القلب أمران: أحدهما تفريغ القلب والوقت للعبادة وثانيهما: إفهام القلب أهمّية العبادة»[3].

---

(1) سورة المؤمنون، الآيتان 1 و 2.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج48، ص239.

(3) الإمام الخميني، الأربعون حديثاً، ص54.

ينبغـي للمصلّـي إحضار قلبه في تمام الصلاة أقوالهـا وأفعالها فإنّه لا يحسب للعبد من صلاتـه إلا مـا أقبل عليه ومعناه الالتفات التام إليها وإلى ما يقـول فيها والتوجّه الكامل نحو حضرة المعبود جلّ جلاله واستشعار عظمته وجلال هيبته وتفريغ قلبه عمّا عداه[1].

2. كيف نحضر القلب؟

عرفنـا أنّ إحضار القلب فـي العبادة يُمثّل روحها وهو أمر لا غنى عنه لكن ما هو الطريق إلى ذلك؟

يذكر علماء الأخلاق ثلاثة أمور تُساعد على ذلك وهي:

الأول: أن يُفرّغ نفسه قبل الدخول في الصلاة من الأفكار والهموم الدنيوية أو المعضلات العلمية وسائر ما يُشغله عن التوجّه إلى المقصود الحقيقي حتى وإن كانت المسألة المطلوب حلّهـا أخروية كما لو كان يبحث عن دليل شرعي على مسألة ما وبقي البحث يُشغل ذهنه إلى أن دخل في صلاته وانتهى وهو يُفكّر ويعمل جهده في طلب الحلّ، فإنّ هذا ممّا لا يجتمع قطعاً مع حضور القلب وإنّما الواجب هو الانتهاء من حلّ تلك المسألة قبل الدخول في الصلاة حتى لا يكون في قلبه سوى اللّه تعالى.

الثانـي: إفهـام القلب أهمّية العبـادة في ظاهرها وباطنها وشكلهـا ومضمونها بما تُمثّله مـن صلة بين الخالق والمخلـوق وغاية في الخلق والبعث وذلك كمقدّمـة لحضور القلب قبل الابتداء بالصلاة.

الثالث: وهو وظيفة مختلفة عن الأمرين الأولين حيث هما مطلوبان قبل الشروع بالعبادة بينمـا هنا المطلـوب هو أثناءها بأن يتأمّل فـي معاني ما يقوله في صلاتـه وأن يُتابعها بتأنٍّ وإمعـان لا لقلقـة لسان دون معرفـة المعاني كالذي يلهج بذكر: سبحـان ربي الأعلى وبحمده وفـي نفس الوقت يكون ذهنه منشغلاً في حساب الأرباح اليومية لمبيعات متجره. ويشير إلى ضـرورة التأمّـل والتفكّر في معانيها قوله ﷺ في وصايـاه لأبي ذر رضي اللّه عنه: «**يا أبا ذر ركعتان مقتصدتان في تفكّر خير من قيام ليلة والقلب ساهٍ**»[2].

(1) الإمام الخميني، تحرير الوسيلة، ج1، ص155.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج77، ص82.

3. صلاة الخاشعين:

إنّ هناك فرقاً شاسعاً بين صلاة الخاشعين وغيرهم نفهمه من خلال القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[1] فإنّ من يُصلّي بهدف التخلّص من مسؤولية الوجوب وليس بدافع خشوعه القلبي لله واستغراقه في ذاته سبحانه، يحسّ بثقل الصلاة وكأنّها مشكلة له ويتمنّى في أثناء صلاته بين آونة وأخرى أن تنتهي بسرعة كي لا تُشغله عن متابعة أعماله ويرى بأنّها قد زاحمت أشغاله واعترضت سيره، فيأتي بها باعتقاد وجوبها مع الإحساس بمشقّتها كأنّه يغفل عن مرور الزمن عليه حال الصلاة، فلا نتصوّر أن تكون الصلاة الموصوفة بهذا الوصف أي أنّها كبيرة إلا على الخاشعين عبارة عن صلواتنا التي قد تكون نقراً كنقر الغراب ولذلك كان الجزاء كبيراً لمن قدر على حدود الصلاة كما حدّثنا عنها النبي صلى الله عليه وآله وسلم قائلاً: «**من صلّى ركعتين لم يُحدّث فيها نفسه بشيء من الدنيا غفر له ما تقدّم من ذنبه**»[2] وعنه صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً: «**إذا قام العبد إلى صلاته وكان هواه وقلبه إلى الله انصرف كيوم ولدته أمّه**»[3].

4. خشوع أهل البيت عليهم السلام:

إنّ الحالات التي وصل إليها أهل العصمة والطهارة عليهم السلام بدءً من جدّهم المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وختماً بالوصي القائم عليه السلام لم يصل إليها نبيّ مرسل ولا ملك مقرّب كما جاء صريحاً عنهم فكيف كان خشوعهم في الصلاة؟!

أ. خشوع النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

في الحديث: «**كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا قام إلى الصلاة تربّد وجهه خوفاً من الله تعالى**»[4].

ب. خشوع أمير المؤمنين عليه السلام:

عن مولانا الصادق عليه السلام: «**كان علي إذا قام إلى الصلاة فقال: وجّهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض تغيّر لونه حتى يعرف ذلك في وجهه**»[5].

---

(1) سورة البقرة، الآية 45.
(2) الفيض الكاشاني، المحجة البيضاء، ج1، ص349.
(3) م.ن، ص382.
(4) الميرزا النوري، مستدرك الوسائل، ج4، ص93..
(5) م. ن.

ج. خشوع الصديقة الزهراء عليها السلام:

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أمّا ابنتي فاطمة فإنّها سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين.. متى قامت في محرابها بين يدي ربّها جلّ جلاله زهر نورها لملائكة السماء كما يزهر نور الكواكب لأهل الأرض يقول الله عزّ وجلّ لملائكته: يا ملائكتي انظروا إلى أمتي فاطمة سيدة إمائي قائمة بين يدي ترتعد فرائصها من خيفتي وقد أقبلت بقلبها على عبادتي**»[1].

5. كيف نعلم بقبول صلاتنا؟

ربما يبدو وللوهلة الأولى أنّ الجواب صعب لكنّه على العكس تماماً فإنّ الحصول عليه ممكن قبل يوم الحساب ووضع الأعمال في الميزان وذلك ما أشار إليه مولانا الصادق عليه السلام قائلاً: «**من أحبّ أن يعلم أقُبلت صلاته أم لم تُقبل فلينظر هل منعت صلاته عن الفحشاء والمنكر فبقدر ما منعته قُبلت منه**»[2].

فالصلاة التي تحمل هذا الأثر تُكتب وتُرفع وأمّا الفاقدة له فتردّ ويضرب بها وجه صاحبها.

6. حقّ الصلاة:

في رسالة الحقوق لسيد الساجدين علي بن الحسين عليه السلام: «**وحقّ الصلاة أن تعلم أنّها وفادة إلى الله تعالى، فإذا علمت ذلك قمت مقام الذليل الحقير الراغب والراهب الراجي الخائف المسكين المتضرّع لمن كان بين يديه بالسكون والوقار، وتُقبل عليها بقلبك وتُقيمها بحدودها وحقوقها مع الإطراق وخشوع الأطراف ولين الجناح وحسن المناجاة له في نفسه والرغبة إليه في فكاك رقبتك التي أحاطت بها خطيئتك واستهلكتها ذنوبك**»[3].

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج70، ص400.
(2) م.ن، ج16، ص204.
(3) الإمام السجاد عليه السلام، رسالة الحقوق (حق الصلاة).

المفهوم الثاني: قصة طالوت والقائد الصالح

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

القصة

عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام: «إنّ بني إسرائيل بعد موسى عملوا بالمعاصي وغيّروا دين الله وعتوا عن أمر ربّهم، وكان فيهم نبيّ يأمرهم وينهاهم فلم يُطيعوه، فسلّط الله عليهم جالوت وهو من القبط، فأذلّهم وقتل رجالهم وأخرجهم من ديارهم وأخذ أموالهم واستعبد نساءهم، ففزعوا إلى نبيّهم وقالوا: سل الله أن يبعث لنا ملكاً نُقاتل في سبيل الله، وكانت النبوّة في بني إسرائيل في بيت، والملك والسلطان في بيت آخر، لم يجمع الله لهم النبوّة والملك في بيت واحد، فمن ذلك قالوا: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فقال لهم نبيّهم: ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟

(1) سورة البقرة، الآيات 247 – 251.

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ﴾ وكان كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۗ﴾[1]، فقال لهم نبيّهم: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ﴾ فغضبوا من ذلك وقالوا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ﴾ وكانت النبوّة في ولد لاوي، والملك في ولد يوسف، وكان طالوت من ولد ابن يامين أخي يوسف لأمه، لم يكن من بيت النبوّة ولا من بيت المملكة،فقال لهم نبيّهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ وكان أعظمهم جسماً، وكان شجاعاً قوياً، وكان أعلمهم، إلا أنه كان فقيراً فعابوه بالفقر، فقال لهم نبيّهم: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ﴾ تبركون به، فلمّا حضر موسى الوفاة وضع فيه الألواح ودرعه وما كان عنده من آيات النبوة وأودعه يوشع وصيه، فلم يزل التابوت بينهم حتى استخفّوا به، وكان الصبيان يلعبون به في الطرقات، فلم يزل بنو إسرائيل في عز وشرف ما دام التابوت عندهم، فلمّا عملوا بالمعاصي واستخفّوا بالتابوت رفعه الله عنهم، فلمّا سألوا النبي وبعث الله إليهم طالوت ملكاً يُقاتل معهم ردّ الله عليهم التابوت، كما قال الله: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ﴾ والبقية: ذرية الأنبياء، وقوله: ﴿فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ فإن التابوت كان يوضع بين يدي العدو وبين المسلمين فتخرج منه ريح طيبة لها وجه كوجه الإنسان»[2].

الدروس المستفادة من هذه القصة

صفات القائد بين الاختيار الإلهي والاختيار البشري

تحكي لنا هذه القصة التي جرت مع بني إسرائيل عن تلك الصفات التي ينبغي أن يتمتّع بها القائد، والتي تكون معياراً يؤهّله لأن يكون له أمر قيادة الناس إلى ما فيه صلاحهم

(1) سورة البقرة، الآية 246.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج13، ص440.

وخيرهـم، كما تحكي عن الصفات والموازين التي يراها الإنسان المادّي معياراً لذلك وتبيّن خطأ تلك المعايير البشرية.

أ. المعايير الإلهية:

ورد في هذه الآية ذكر صفتين من الصفات التي لا بدّ وأن تتوفّر في الإنسان الذي يُراد له أن يكون قائداً يسير الناس خلفه في المطالبة بحقوقهم والدفاع عن وجودهم وكيانهم، وهما:

أولاً: العلم

إنّ الصفـات التي تؤهّـل الشخص للقيادة – في تعاليم الإسـلام – لها علاقة بالصفات الشخصية التي يتمتع بها، وعلى رأسها العلم، وهي الصفة التي تؤهل الإنسان لأن يكون قائداً وأميراً على القوم.

وقـد ورد عـن رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ما ولّت أمة قـطّ أمرها رجـلاً وفيهم أعلـم منه إلا لم يزل أمرهم يذهب سفالاً حتى يرجعوا إلى ما تركوا**»[1]. ونحن نلاحظ أن الله تعالى وصف طالوت بأنّه زاده بسطة في العلم، أي إنه كان يفضل عليهم بالعلم، لا أنّه كان يساويهم.

ثانياً: صفات وقدرات جسميّة

لا يكفـي في القائـد أن يكون عالماً بل ينبغـي أن يكون ذا صفات وقـدرات جسمية تؤهّله للقيادة بحسب ما يفترضه هذا المقام، وما تقتضيه المهام الملقاة على عاتقه، وقد ورد عن الإمام علي عليه السلام: «**يحتاج الإمام إلى قلب عقول، ولسـان قؤول، وجنان على إقامة الحقّ صؤول**»[2].

فـلا بدّ وأن يكون القائد قـويّ القلب يتمكّن من اتخاذ قرارات حاسمة في بعض المواطن التي قد يتردّد فيها الإنسان العادي.

كما ورد عن الإمام علي عليه السلام: «**إنّ أحقّ الناس بهذا الأمر أقواهم عليه وأعلمهم بأمر الله فيه، فإن شغب شاغب استعتب، فإن أبى قوتل**»[3].

(1) بحار الأنوار، ج31، ص418.
(2) الليثي، عيون الكم والمواعظ، ص556.
(3) نهج البلاغة، ص247.

ويصف الإمام علي عليه السلام مالك الأشتر في كتابه لأهل مصر لمّا ولّاه مصر يقول:

«أمّا بعد، فقد بعثت إليكم عبداً من عباد الله لا ينام أيام الخوف ولا ينكل عن الأعداء ساعات الروع، أشدّ على الكفّار من حريق النار، وهو مالك بن الحارث أخو مذحج، فاسمعوا له وأطيعوا أمره في ما طابق الحقّ، فإنّه سيف من سيوف الله لا كليل الظبة ولا نابي الضريبة. فإنْ أمركم أن تنفروا فانفروا، وإنْ أمركم أنْ تُقيموا فأقيموا»[1].

ب. المعايير البشرية:

أولاً: النسب والحسب

فإنّ الكثير من الناس يظنّ أنّه إذا كان صاحب نسب بأن كان من سلالة كان لها الحكم والسلطة والإمرة والقيادة فإنّ هذا يؤهّله لأن يكون أحقّ من غيره لهذا المنصب والمقام. كما احتجّت قريش على أنّ الخلافة لا بدّ وأن تكون فيها لأنّها أقرب إلى رسول الله، فهي افتخرت بنسبها مع أنّ النسب ليس معياراً لمقام الإمامة والقيادة.

ثانياً: سعة المال

يرى بعض الناس أنّ من لا يكون صاحب حسب ونسب فلا بدّ وأن يكون صاحب مال يجبر فيه ما ينقصه من الحسب والنسب، وهذا المنطق هو منطق أهل الشرك والضلال.

ومن هنا نجد أن الناس تميل إلى احترام صاحب المال لما يملكه من مال، وهذا الاحترام احترام مؤقّت فإذا زال ما عنده من المال ترك الناس ذلك الاحترام، ولهذا لا يصحّ أن يكون امتلاك المال معياراً في القيادة، بل لا بدّ وأن تكون الصفة التي تجعل الشخص أهلاً للقيادة من الصفات التي لا تقبل الزوال كالعلم.

الابتلاء والاختبار الإلهي

هل يكفي إعلان الناس عن استعدادهم للقتال والجهاد لكي يمشي القائد بهم إلى الحرب والقتال؟ لا، بل لا بدّ له من أن يمتحنهم ليعرف منهم الطاعة والالتزام بأوامره ونواهيه وهذا ما حصل مع طالوت عليه السلام فقد أراد الله أن يختبر هؤلاء الذين أرادوا قتال عدوّهم قبل أن

(1) نهج البلاغة، الكتاب38، من كتاب له إلى أهل مصر لما ولى الأشتر مصر.

يقــع القتال، وفي هــذا الاختبار تمكّن القائد طالوت من معرفة مــن أخلص النية في الجهاد والقتال ممن مشى معه لمصالح آنية أو لأنّه رأى الناس تمشي فمشى بمشيهم.

وهكـذا تظهــر أهمّية الطاعة للقائد، وأنّه ما لم تُعلم الطاعــة فإنّ على القائد أن لا يُقدم على الحرب والقتال فإنّ ذلك قد يترتّب عليه الهزيمة والخسران.

لقــد كانت نتيجة هذا الاختبار أن لا تثبت سوى الفئة القليلة ولكن هذه الفئة القليلة تمتاز بأنّها مؤمنة ومخلصة ولذلك فإنّ النصر سوف يكون حليفها بإذن الله تعالى.

وقــد ورد عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «**يحقّ على الإمام أن يحكم بما أنزل الله وأن يــؤدّي الأمانــة، فــإذا فعل ذلك فحقٌّ على الناس أن يســمعوا لــه ويطيعوا ويُجيبوه إذا دعا**»[1].

(1) المتقي الهندي، كنز العمال، ج5، ص764.

المفاهيم الرئيسة

- الخشوع هو روح العبادة التي ترفعها إلى مقام القبول والفوز بالفلاح والنجاح.
- إنّ لإحضار القلب ثلاثة أمور: تفريغ النفس قبل الصلاة، وإفهام القلب أهمّيتها، والتأمّل في معانيها.
- لم يصل أحد من الأنبياء المرسلين والملائكة المقرّبين إلى مرتبة خشوع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام.
- إنّ من حقّ الصلاة أن تُقبِل عليها بقلبك مع خشوع الأطراف ولين الجناح.
- تتضمّن قصة طالوت مفاهيم تربوية تتعلّق بمسألة صفات القائد ولزوم طاعته.
- في صفات القائد معايير إلهية ومعايير بشرية. أمّا المعايير الإلهية فهي ترجع إلى صفتين في القائد: العلم، وقوّة الجسم والشجاعة. وأمّا المعايير البشرية فهي ترجع إلى صفتين: النسب والحسب، المال والثروة.
- الدليل على كون المعيار الصحيح هو العلم وقوّة الجسم أنّ هاتين الصفتين بهما يتمكّن القائد من تحقيق النصر وأمّا الحسب والثروة مع الجهل والضعف فنتيجته الهزيمة.
- إنّ امتحان الناس واختبارهم لازم وضروري قبل إقحامهم في الحرب والقتال، لأنّ كثيراً من الناس قد يتراجعون عند أول مواجهة.

مركزُ نـون، مـنْ مؤسَّسات جمعيَّةِ المعارفِ الإسلاميَّةِ، يختصُّ بتخطيطِ البرامجِ والمتونِ التعليميَّةِ والثقافيَّةِ، وتـأليـفِ وإعــدادِ الـمـتـونِ التعليميَّةِ والثقافيَّةِ الـعـامَّـةِ، مُراعياً القواعدَ المنهجيَّةَ والبحثيَّةَ والتربويَّةَ، وحفظَ الأصالةِ الإسلاميَّةِ.

1037002

03 336218

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION
لبنان - بيروت - المعمورة - الشارع العام
تلفون: 01/471070 فاكس: 01/476142
www.almaaref.org
Email:info@almaaref.org